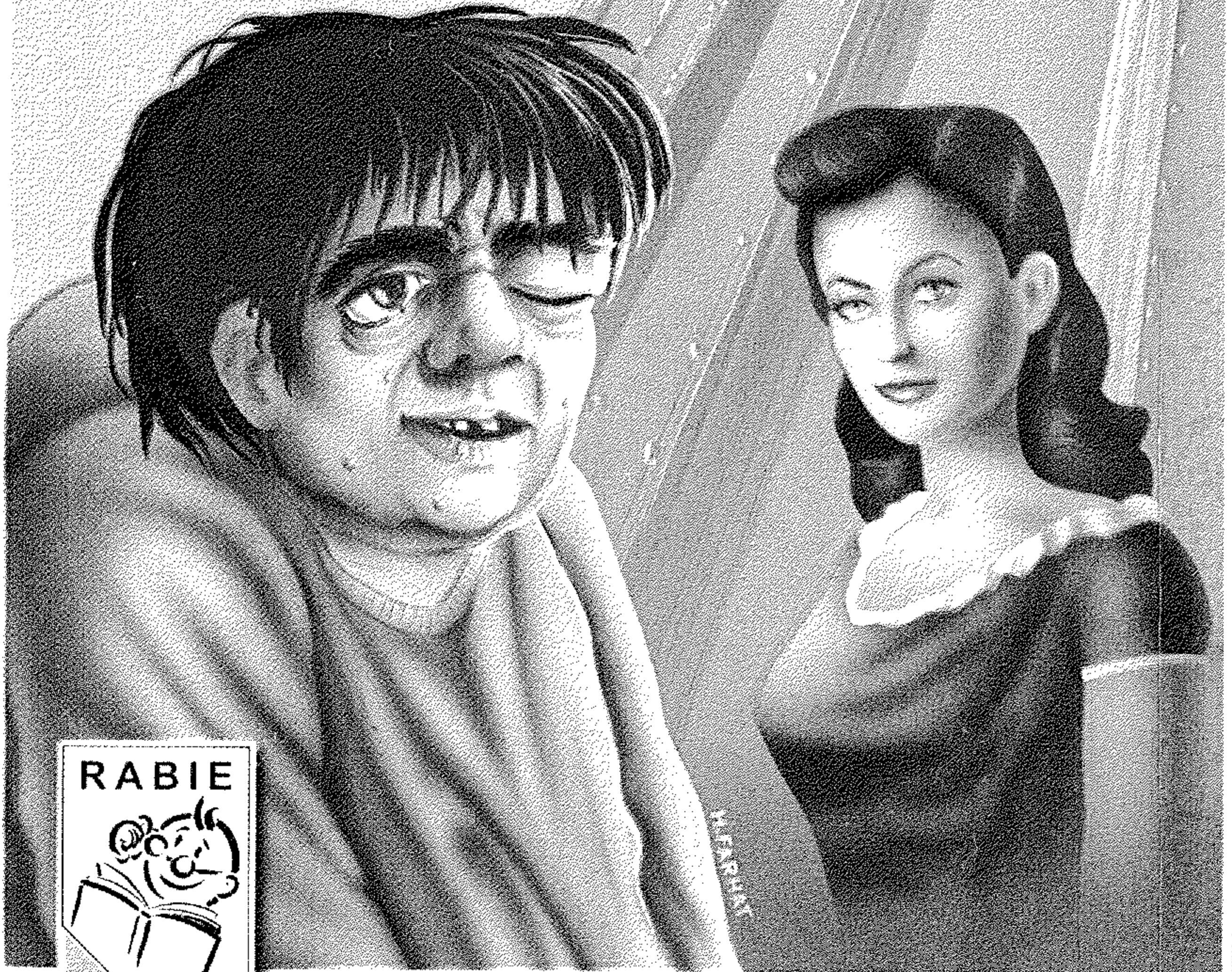


روايات عالمية للناشئة

أحببت ثورتهم

محمود خورشيد



RABIE



MARJAT

روايات عالمية للناشئة

أحديب نوتردام

أحلب نوتردام

(فيكتور هيغو)

1802 – 1885

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشراف : محمد كمال
إخراج فني : م. نشوان خريط

أحذب نوتردام

المسرحية

في السادس من كانون الثاني سنة 1482 ، قرعت نواقيس كنائس المدينة ونواقيس الجامعة ، توقف الباريسيون وتدعوهم إلى احتفالين بآن واحد ، الاحتفال بيوم الملوك وعيد المجانين .

وسوف تقوم الاحتفالات في ثلاثة أماكن : في ساحة كريف ، وأمام كنيسة براك ، وأما المسرحية فتمثل في قصر العدل . فتوافد الناس رجالاً ونساءً منذ الصباح ، وأغلقت البيوت والخوانيت ، وتوجهوا إلى أحد الأماكن المذكورة . وأما العدد الأكبر من الناس فقد توجهوا نحو قاعة قصر العدل حيث تمثل المسرحية . ولعل هذا بدافع حب الباريسيين للمسرح ، يضاف إلى ذلك أن المسرحية تمثل في مكان مكشوف ومغلق ، مما يوحي بأنه عرض حقيقي . كما

أنه قد أعلن عن زواج ولي العهد بمرغريت دي فلاندر . وقد اقترح السفراء الفلمنكيون الاشتراك في مشاهدة المسرحية ، وانتخاب (بابا المجانين) الذي سيجري في القاعة الكبرى أيضاً . وسيرافق هؤلاء الحكام بعض الشخصيات الهامة ، مثل صاحب النياقة كردينال بوربون وقاضي القصر الملكي . وقد أقيمت له منصة مزينة بنسيج البروكار المذهب ، وسط القاعة في مواجهة الطاولة الرخامية الكبيرة التي ستعرض عليها المسرحية ، طبقاً للأعراف المتبعة .

المفترض أن يبدأ العرض ظهراً . وقد تأخر العرض لانتظار وصول المبعوثين الفلمنكيين . وللأسف .. انتصف النهار دون أن يظهر هؤلاء المبعوثون .

أما الجمهور الذي ينتظر منذ الصباح فقد انتشرت بينه هممة تحولت إلى تدمير ، وارتفعت الأصوات بعدئذ بالهتاف :

— المسرحية .. المسرحية !

كانت أصوات طلاب المدارس المتعطشين للحركة
والهتاف والشجار وممازحة الناس . وقد تميز من بينهم شاب
أشقر الشعر وقف يهتف فوق الشرفة ، وكان اسمه يوهان
فرولو ، وهو شقيق رئيس أساقفة كنيسة نوتردام الدون
كلود فرولو . وتعالّت الأصوات من كل جانب :
المسرحية .. المسرحية !

وحاول أحد الممثلين أن يهدئ الجمهور فصرخ بأعلى
صوته : سنبداً حينما يصل صاحب النياقة الكردينال .
ولكن صوته ضاع بين هتافات الاستنكار . وصرخ
الجمهور : ابدؤوا المسرحية حالاً .. ابدؤوها حالاً !

فاضطر الممثل الذي يلعب دور جوبيتر إلى البدء ، وكان
شاحب الوجه بملابس حمراء ، فأمسك خوذته بيده وقال
متلعثماً : أصحاب السعادة السفراء .. مدام مرغريت دي
فلاندر .. وكان خائفاً من أن يشنق ، إما من طرف الجمهور
إذا لم يبدأ العرض أو من طرف الكردينال إذا بدأه قبل

حضوره . فكان جوبيتر واقعاً بين مشنقتين ! ولحسن حظه
فإن مؤلف المسرحية انتشله من هذه الورطة وتحمل عنه
مسؤوليتها ، فقال : ابدأ فوراً .. بناء على طلب الجمهور .

واقتربت فتاتان من مؤلف المسرحية ، وسألته إحداهما :

– هل تعدنا بأن تكون المسرحية جيدة ؟

فأجاب : لا ريب في ذلك ، لأني أنا مؤلفها .. واسمي

بيير غرينغوار .

قال ذلك بلهجة اعتزاز لا يجرؤ عليها بيير كورناي

مؤلف مسرحية " السيد " .

وصدحت الموسيقى وارتفع الستار عن أربع شخصيات

قد صبغت وجوهها بالمساحيق وارتدت ملابس زاهية

الألوان . وبدأت المسرحية بأن صبت على الجمهور طوفاناً

من الاستعارات والحكم والأمثال تتدفق بها أفواه الشخصيات

المجازية الأربع : الشخصية الأولى تحمل مجرفة وهي مرتدية

ثوباً من الخيش وتمثل العمل ، والثانية مرتدية ثوباً من

البروكار وتمثل النبالة ، والثالثة في ثوب من الحرير وتمثل رجال الدين ، والرابعة في ثوب من الصوف وتمثل السلعة . ونشب النزاع بين السيدة النبالة والسيدة السلعة ، وحينما نطق السيد العمل بهذه الجملة :

" لا تجد في الغابة وحشاً أشد فتكاً من هذا الحيوان "

فتح باب المنصة الخاصة وزأر مدير التشريفات :

- صاحب النيافة ، مونسنور كردينال دي بوروبون .

الفصل الثاني

متاعب شاعر

يالْبؤس الشاعر !

إن ما كان يخشاه قد حصل ، إذ أهاج الجمهور دخول
الكردينال ، ولم تعد تسمع سوى هذه الكلمة تتردد على
الشفاه : الكردينال .. الكردينال !

وسكت الممثل ، وأما الكردينال فحيا الحضور بابتسامة
زائفة وتوجه بخطوات رزينة نحو مقعده المخملي ، وجلس
وكان فكره مشغول بأمر آخر ، وتبعته حاشيته ، فأثارت
مثلاً آثار دخوله من الضوضاء . فهذا يشير إليهم بيده وآخر
يذكر أسماءهم وثالث يزعم أنه يعرف بعضهم ..

ولم ينزعج الكردينال لهذه الفوضى ، إذ اقتضت
الأعراف أن تباح الحريات في هذا اليوم . وكان مهموماً بأمر
آخر يتبعه عن كثب ، وقد دخل معه إلى المنصة في وقت

واحد : إنه سفير الفلاند . وقد كُبر عليه وهو شارل دي
بوربون كردينال فرنسا أن يساير هؤلاء الفلمنكيين ويضمه
معهم مكان واحد . وحينما أعلن مدير التشريفات :

– السادة مبعوثو سيادة دوق النمسا !

التفت الكردينال نحو الباب بدمائة أخلاق لا توصف ،
ودخل زوجاً بعد زوج الثمانية والأربعون سفيراً لمكسمليان
النمسا . فيهم القضاة والضباط والمستشارون غارقين في
أثواب من المخمل والحرير الدمشقي المطرزة بخيوط الذهب
القبرصي ، وكانوا من الفلمنكيين الأصلاء . وقد تميز من
بينهم وجه نابه داهية شبيه بوجه القرد ، فحياه الكردينال
تحية مضاعفة وانحنى أمامه وهو يدعى غليوم ريم مستشار
مدينة غند .

وقلة من الناس تعرف من هو غليوم ريم ، إنه أحد تلك
الشخصيات العبقرية التي تحيك المؤامرات مع الملك لويس
الحادي عشر المطلعة على أدق أسرارها .

حينما كان سفير غند وصاحب النيافة يتبادلان التحيات
اقتحم الحاشية رجل طويل القامة عريض الوجه ووقف في
مواجهة غليوم ريم ، فكأنه كلب بولدغ أمام ثعلب ، وكانت
قبعته المصنوعة من اللباد وسترته الجلدية كالبقعة الوسخة بين
كل هذه الثياب المخملية والحريرية المحيطة به ، وحسبه مدير
التشريفات سائساً ضل طريقه ، فأوقفه قائلاً : يا صاحبي ..
المرور ممنوع !

فهتف به : ماذا تريد مني أيها السخيف ؟ ألا تعرف من
أنا ؟ فقال له : ما اسمك ؟

- جاك كوبنول .

- وما مرتبتك ؟

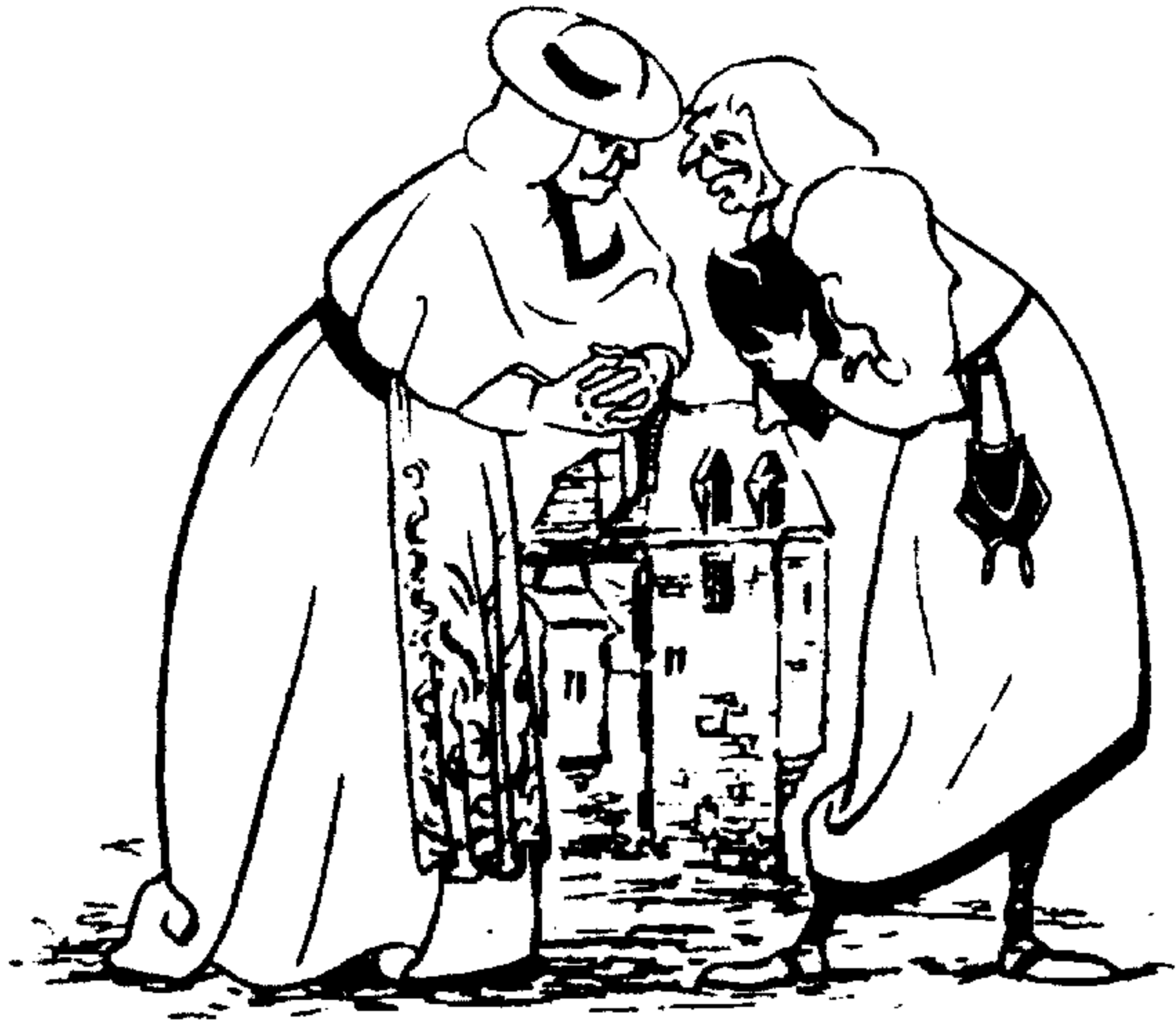
- صانع الجوارب من ماركة السنديانات في مدينة غند !
وتراجع مدير التشريفات دهشة ، لقد قبل أن يعلن عن
وصول رئيس بلدية أو مساعده ، أما أن يعلن عن صانع
الجوارب !

حيا كوبنول صاحب النياقة وهو هادئ الملامح وظهرت
 على الكردينال علائم القلق ، واتخذ كل منهما مقعده .
 نعود إلى المسرحية ومؤلفها فقد نسيناهما تماماً ، ماذا فعل
 المؤلف العتيد ؟ لقد تصور استراتيجية تنقذ مسرحيته ،
 فانضم إلى الجمهور وجعل يهتف بصوت مرتفع :

– المسرحية .. استأنفوا المسرحية !

فاستأنف الممثلون حوارهم وجدالهم ، وتنفس غرينغوار
 بارتياح لأن مسرحيته ستعرض حتى النهاية .. وخاب فأله !
 لقد انتظر دخول المبعوثين والسفراء ، وصبر على تبادل
 التحيات ، وقال لنفسه إن المسرحية ستعرض كاملة ، وإذا
 بصانع الجوارب كوبنول ينهض والناس ساكتون ، فيصرخ
 بصوت كالزئير : أيها السادة الحضور .. ويا أشرف
 باريس ! لا أدري ماذا نفعل هنا ، لقد وعدونا بعيد المجانين
 وانتخاب (بابا المجانين) ، وإليكم كيف ننتخبه في (غند) :
 يكون الناس متجمهرين كما هم الآن ، ويمد كل واحد منهم

رأسه من نافذة ، ويبدل ملامحه ساخراً ، فمن يجلب انتباه
الناس واستحسانهم يُنتخب (بابا المجانين) وأقترح عليهم
هذه الطريقة ، فما رأي السادة الأشراف ؟
وقوبل اقتراحه بالتهليل والترحاب ، وكانت معارضته
مستحيلة ، بحيث إن الغضب والاستياء قد ألجما المؤلف
غرينغوار ، فلم يعد قادراً على الكلام ، وأخفى وجهه بين
كفيه .



الفصل الثالث

كازيمودو

أصبح كل شيء جاهزاً بلمح البصر لتنفيذ اقتراح كوينول ، وقد وقع الاختيار على مُصلى القصر أمام طاولة الرخام ليكون مسرحاً تعرض فيه تكشيرات المتنافسين ، فكُسر زجاج إحدى النوافذ الصغيرة لكي يُطلّ منه المتسابق برأسه ، وكان كوينول من مقعده يأمر وينهى ويرتب الأمور . وفي غمرة هذا الهياج نهض الكردينال مُحْتَجاً بموعد الصلاة وانسحب مع حاشيته ، دون أن يثير انصرافه الضجة التي أثارها حضوره ، وأصبح المجال فسيحاً أمام كل أنواع السخافات ، ولم يبق سوى الفلمنكيين والدهماء .

وبدأت مباراة التكشير وتبديل ملامح الوجه من خلال تلك النافذة الصغيرة في المُصلى ، فكنت ترى أشنع ما يمكن لملامح الوجه الإنساني أن تبلغه من التعابير ومن الصور

الحيوانية ، والجمهور يصرخ ويصرخ وقد أهاجه هذا
الكرنفال من الكوابيس .

فجأة سُمعت عاصفة من التصفيق ممتزجة بهتافات مدوية
هزت المجلس ، لقد انتُخب (بابا المجانين) ، والجمهور يصرخ
من كل جانب : نويل .. نويل .. نويل .
كانت تكشيرة فظيعة تظهر داخل إطار النافذة ، تكشيرة
أدهشت الحاضرين واكتسحت أصواتهم .



سنحاول أن نعرض للقارئ فكرة تقريبية عن هذا الوجه الذي ظهر في إطار النافذة ، فالأنف مثلث السطوح والفم على شكل حدوة الحصان والعين اليسرى يغطيها حاجب كثيف والعين اليمنى مخفية تماماً تحت تجعدات الجفنين ، وأما الأسنان فهي مشتتة هنا وهناك كأنها سور قلعة قديمة ، والشفتان الدبقتان تنفرجان عن ناب بارز كناب الفيل ، والذقن مشقوق في وسطه . ويخيم على ذلك كله مزيج من المكر والدهشة والكآبة . تصور هذا الوجه إن استطعت .

حين زفّوا من المصلّى (البابا) الجديد ، بلغ الإعجاب به مداه ، فما حسبه تكشيرة مصطنعة كان وجهة الحقيقي ، إذ كان شخصه كله تكشيرة واحدة ، يضاف إلى هذا حدة كبيرة تُثقل ظهره وتحنيه إلى الأمام . وأما ساقاه فتلتقيان عند الركبتين وكأنهما قوسان محنيتان تلتقيان عند القبض ، ويناسب هذا التشويه عزم قوي وإرادة ثابتة وشجاعة عظيمة .

حين أطلّ هذا المشوّه على عتبة المصلّى ثابتاً ضخماً طوله داخل في عرضه ، عرفه الجمهور فوراً وهتفوا بصوت واحد :

- إنه كازيمودو قارع النواقيس .. إنه أحذب نوتردام .. كازيمودو الأعور .. كازيمودو الأعوج الساقين .

أما هو فقد وقف رزيناً هادئاً لكي يتأمله الناس ، وحينما اقترب منه أحد تلاميذ المدارس هازئاً به أمسك به من حزامه دون أن يبذل جهداً ورماه فوق الناس ولم ينطق بكلمة واحدة ، حينئذٍ أفرغت من حوله حلقةٌ من الرهبة والهيبة مُحيطها خمس عشرة خطوة على الأقل ، وقيل للمعلم كوبنول إن كازيمودو أصمّ . فقال كوبنول :

- أصمّ ؟ لقد اكتمل إذن ، وهل هذا المخلوق أخرس أيضاً ؟

- إنه يتكلم حين يريد ، لقد أصبح أصمّ من أصوات النواقيس ، وهو ليس أخرس .

أثناء ذلك ألبس كازيمودو طرطوراً من الورق وثوباً فضفاضاً خاصاً بـ (بابا المجانين) ، ثم حمّله اثنا عشر ضابطاً من أخوية المجانين فوق محفة مزينة ، وقد فاض وجهه الكئيب بفرح غامر حينما رأى تحت قدميه المعوجتين رؤوس هؤلاء الرجال الأشداء المكملي البنيان ، ومضى الموكب الهائج في جولة داخل ردهات القصر ، ثم خرج يطوف الشوارع . وفجأة صرخ بعض المُجَان :

– الإسميرالدة .. الإسميرالدة !

وكان لهذا الاسم تأثير السحر ، واندفع كل من بقي في القاعة إلى النوافذ وتسلقوا الجدران ليتفرجوا وهم يهتفون :

– الإسميرالدة .. الإسميرالدة !

على حين ارتفعت من الساحة عاصفة من التصفيق ، وزمجر غرينغوار :

– ما هذه الإسميرالدة ؟

الفصل الرابع

العنزة ذات القدمين الذهبيتين

حينما وصل بير غرينغوار إلى ساحة كريف أحس بروعة ما يحدث ، فقد رأى ناراً احتفالية هائلة تشتعل وسط الساحة ويحيط بها جمهور غفير من الناس ، وضمن المساحة الخالية بين الجمهور والنار كانت ترقص فتاة ، ولم يدر غرينغوار كيف يصف جمالها ، أهى من البشر أم من الجن ، أم هي مخلوق سماوي لا يعرف له اسماً .

لم تكن فارعة الطول ولكنها هيفاء ممشوقة القوام ، وكانت سمراء سُمرة ذهبية عُرفت بها فتيات الأندلس ، وتنقل قدمين رشيقتين لا تكادان تلمسان الأرض إلا مساً رقيقاً ، وترقص على قرع الطبله كالفراشة فوق بساط عجمي عتيق ، وقد أحاطت بها الأنظار وفغرت الأفواه دهشة ، فكأنها ليست من مخلوقات هذه الأرض وإنما حورية هربت

من بساتين النعيم ، وقد انسدت إحدى جداولها الكثيفة
على كتفها بعد أن تفلتت من حبكة النحاس التي تمسك بها
وتدحرجت إلى الأرض ، فعرف غرينغوار أنها إحدى
الفجريات ، وزالت عنه أوهامه .

تابعت الفجرية رقصها على أضواء النار الحمراء التي
تنعكس على الوجوه المحيطة بها فتزيد من الإحساس بالتهاب
عواطفهم .

بين هذه الآلاف من الوجوه كان وجه واحد قد استغرق
في تأمل هذه الراقصة ، إنه وجه رجل شديد الملامح لم يتجاوز
الخامسة والثلاثين ، ولكنه أصلع الرأس وما بقي من شعره قد
شاب ، عريض الجبين قد بدأت التجاعيد تغزوه ، ولكن
عينيه تلمعان لمعاناً شرساً ، ولم يرفعهما عن هذه الفجرية ابنة
السادسة عشرة التي تكاد تطير والجمهور مستمتع برقصها ،
وحين أنهكها الرقص توقفت و صفق لها الجمهور إعجاباً ،
فنادت الفجرية :

- جالي !

حينئذ رأى غرينغوار عنزة صغيرة بيضاء تشغو متوفزة ،
يلتمع قرناها المذهبان وقدماهما المذهبتان والعقد الذهبي في
رقتها . وقالت الراقصة :

- جالي .. جاء دورك الآن .

وجلست أمام العنزة وأمسكت الطبله أمامها ،
وسألتها :

- جالي .. في أي شهر نحن الآن ؟

فرفعت العنزة قدمها وضربت على الطبله مرة
واحدة ، وكان فعلاً الشهر الأول ، وصفق الجمهور لها ، ثم
قالت الفتاة :

- في أي يوم من الشهر نحن الآن ؟

فرفعت العنزة قدمها الصغيرة المذهبة وضربت على
الطبله ست ضربات ، وسألتها العجورية :

- كم الساعة الآن ؟

فضربت سبع ضربات . وفي تلك اللحظة قرعت ساعة
الساحة سبع مرات ، وذهل الناس ، وهتف صوت كئيب من
الحاضرين :

- هذا سحر .. لا بد أنه السحر .

كان صوت ذلك الرجل الأصلع ، وارتعدت الفجرية ،
لكن تصفيق المتفرجين طغى على صوته ، فخاطبته الفجرية :

- كيف يفعل رئيس الحرس ؟

فوقفت جالي على قدميها الخلفيتين وبدأت تشغو وتمشي
مشية منتظمة حتى انفجر المتفرجون بالضحك لرؤية هذا
التقليد الساخر لرئيس الحرس ، وشجع هذا النجاح الفجرية
على طلب المزيد من العنزة ، فقالت :

- جالي .. كيف يخطب القس جاك شار مولي أمام

الملك ؟

فوقفت العنزة على قدميها الخلفيتين وبدأت تشغو
وتحرك يديها بطريقة عجيبة وكأنها تقلد أخطاءه اللغوية
وطريقته في الإلقاء . صفق الجمهور طويلاً .

وعاد الصوت إلى الصراخ عالياً :

- كفر وسحر .. وتدنيس للمقدسات .

فقال الفجرية :

- آه .. هذا الرجل الشنيع !

ثم شدت قامتها وأمسكت الطبله ودارت عدة دورات
على عقب قدمها ، وبدأت تجمع من الناس الصدقات ،
وانهمرت عليها قطع النقود من نحاسية وفضية ، وفجأة وقفت
أمام غرينغوار فوضع يده بسرعة في جيبه وقال وهو يواجه
الحقيقة ، أي الفراغ : يا رب !

والفتاة الحسناء واقفة أمامه تمد يدها بطبلتها ، والعرق
يتصبب من جبهة غرينغوار ، وأحس كأن الدوار يعصف
برأسه ، وتخيل نفسه في مكان بعيد مختلف تماماً ، ولم ينتزعه

من عالم خيالاته سوى غناء عجيب متناسق الألحان ، إنه صوت الفجرية يصدح ، فلم يدر هل يعجب بحسنها أم برقصها أم بغنائها ، كانت مكتملة الصفات ، وأحس غرينغوار بالدموع تنسكب من عينيه .

الآن ظهر موكب (بابا المجانين) بعد أن تجول في الأزقة والحارات ووصل إلى ساحة كريف بكل مشاعله وأصواته ، وقد عرف القارئ كيف تمّ انتخاب هذا البابا في قصر العدل ، وانضم إلى هذا الموكب في مسيرته كل ما يمكن أن تحويه باريس من متشردين ومتسكعين ومشوهين وعاجزين ولصوص من قاع المجتمع .

كان في طليعة الموكب ملك الفجر راكباً حصاناً ترافقه حاشيته ماشية حوله ، وقد أمسك بالرسن كأنه من كبار المحاربين ، ثم تبعته مملكة الرعاع ، أي ما تحويه فرنسا من لصوص وقطاع الطرق ، وقد انتظموا صفوفاً أربعة أربعة ، الأقل مالاً والأشد فساداً في الطليعة ، ثم يتلوهم الآخرون

على مراتبهم ، فترى الشحاذين ولصوص الأسواق والعميان
العاجزين والمشردين من اليتامى .

وسط هذا الجمهور ترى الضباط الكبار لأخوية المجانين
يحملون على أكتافهم محفة مزينة بالشموع الموقدة ، وقد
جلس فوقها (بابا المجانين) الجديد قارع النواقيس في كنيسة
نوتردام كازيمودو الأحدب وهو في أبهى زينة .

لا يمكننا أن نصف اعتزاز كازيمودو والفرحة التي
ارتسمت على وجهه المشوه الكتيب أثناء رحلته من قصر
العدل إلى ساحة كريف ، إذ كانت هذه أول مرة يهتم به
أحد أو ينتبه إلى وجوده ، فلم يلق سوى الإهانة والتقرز
وأبشع الصفات التي يوصف بها إنسان ، وعلى الرغم من أنه
أصم فقد كان يستمتع بهتافات هذا الجمهور الذي يرفعه على
الأعناق كأنه بابا حقيقي ، وإن كان هذا الجمهور حثالة من
المجانين والمعتوهين والمتسولين فلا يهتم لذلك .. إنها رعيته
وهو الحاكم عليها ، وكان يحمل على محمل الجد كل هذه

التهافتات الهازئة به ، وكل آيات الاحترام الساخرة منه يبيدها الجمهور نحوه ممزوجة بشيء من الرهبة ، فقد كان الأحذب قوياً ، وكان معوجّ الساقين سريع الحركة ، وكان الأصمّ شريراً ، وهذه الصفات الثلاثة يخشاها الحمقى ، لذلك فوجئ الناس حين مر الموكب أمام بيت الأعمدة برؤية رجل اندفع من بين الجمهور وانتزع بحركة غاضبة من يد كازيمودو صليبه المذهب علامة سلطته البابوية . لم يكن ذلك الرجل سوى الأصلع الذي كان يصرخ بالغجرية ساخطاً عليها ويتهمها بالسحر والكفر ، وحين مر بجانب غرينغوار هتف هذا مذهولاً :

– إنه كلود فرولو رئيس الأساقفة ، ماذا يريد من هذا الأعور ؟ سيفتك به .

وارتفعت صرخة رعب ونزل كازيمودو عن المحفة ، فأدارت النساء بصرهن لئلا يشهدن مصرع رئيس الأساقفة ، وقف حتى وقف أمامه ، ورفع بصره إليه ثم خرّ راكعاً ،

فانتزع القس طرطوره وثوبه وكسر له صليبه المصطنع ،
 وظل كازيمودو راكعاً وقد أطرق برأسه وشبك أصابع يديه ،
 ثم جرى بينهما حوار من الإشارات والحركات ولم يتبادلا
 الكلام ، القس يهدده بسلطة عظيمة والأحدب خانع ذليل
 بين يديه . وإن كان كازيمودو يستطيع هرس القس بإصبع
 واحدة .

وأخيراً هزّ القس كتف كازيمودو القوية وأشار إليه أن
 ينهض ويتبعه ، ونهض كازيمودو .

بعد أن زالت الدهشة عن أخوية المجانين ، حاولوا الدفاع
 عن البابا الذي أزيح عن عرشه فجأة ، فاندفع الفجر
 واللصوص والرعايع إلى القس ، فوقف كازيمودو أمامهم بمنعهم
 عنه ، ولوّح بذراعيه الضخمتين في وجوههم وكشر عن أنيابه
 كالنمر الغاضب .

عاد القس إلى هدوئه ووقاره ، فأشار إلى كازيمودو ،
 وانسحبا بصمت ، وكازيمودو يشق له طريقه بين الجمهور .

وبعد أن اجتازا الرعاع في الساحة تبعتهما جماعة من أهل الفضول ، فمشى وراءه مواجهاً الجمهور وقد ظهرت عليه علامات الغضب وهو يتلمظ كأنه خنزير برّي ، مزججراً كالوحش الكاسر ، مبعداً الناس يميناً وشمالاً . حتى دخلا درباً ضيقاً معتماً لم يجرؤ أحد على ملاحقتهما فيه ، فقال غرينغوار :

- هذا رائع ، ولكن أين يمكنني العشاء ؟

الفصل الخامس

مخاطر التجوال ليلاً

تبع الشاعر غرينغوار العجرية دون تفكير وراها سلك مع عنزتها شارع كوتلري ، فدخله ومشى وراها فكانت تسرع الخطا وتحث عنزتها على الهرولة ، إذ خلا الشارع من المارة وأغلقت الحوانيت ، وفكر الشاعر : " لا بد أنها تقيم في مكان ما ، فالعجريات طيبات القلب " . وازدادت الطرقات إظلاماً وخلت من الناس ، فقد أعلن حظر التجول منذ زمن طويل ولم تعد ترى سوى شخص مسرع أو نور مضاء في النوافذ . ومازال غرينغوار يمشي وراها في الدروب الضيقة والممرات المعتمة ، وقد لفت إليه انتباه الفتاة ، فكانت تتلفت خائفة ، واستغلت النور الصادر عن أحد المخابز لتقف وتأمله من رأسه إلى قدميه ، ثم تفتل شفيتها باشمئزاز .

بدأ غرينغوار يضائل شخصه ويتبعها عن بعد حتى اختفت في أحد المنعطفات ، فسمع صرخة شقت السكون فأسرع الخطا ، كان الطريق غارقاً في الظلمة ، ولكن قطعة كتان مغمسة بالزيت كانت تحترق داخل برمبل تحت قدمي تمثال العذراء ، أتاحت له أن يرى الفجرية وهي تتلوى بين أيدي رجلين يحاولان إسكات صرخاتها ، وأما العنزة الصغيرة فقد فزعت لهذا المشهد ، فخفضت قرنيها ورفعت صوتها بالثغاء ، وصرخ غرينغوار وهو يندفع باستبسال :

- إلي أيها الجبناء !

والتفت إليه أحد الرجلين فإذا هو كازيمودو ، فلم يهرب غرينغوار ولكنه لم يتقدم خطوة أيضاً . وجاء إليه كازيمودو وصفعه صفعة رمته على بعد أربع خطوات فوق الرصيف وولى هارباً وقد حمل الفتاة على ذراعه كما يُحمل منديل من حرير . ولحق به صاحبه ووراءهما العنزة تجري وهي تشغو شاكية ، وصرخت الفجرية : القاتل .. القاتل !



فارتفع فجأة صوت كالرعد يقول :

– قف أيها النذل .. واترك الفتاة !

واندفع فارس من تقاطع الطرق ، كان ضابطاً من فرقة
الحرس الملكي يهز سيفه ، وانتزع الفجرية من يدي كازيمودو
وألقاها على حصانه ، وحين أفاق الأحذب من دهشته هجم
عليه ليسترد فريسته ، فاعترض طريقه خمسة عشر جندياً
كانوا يرافقون الضابط ، وقد سلوا سيوفهم فأحاطوا به
وقيدوه ، فكان يصرخ ويرغو الزبد من فمه ويعض ، ولو
كان الوقت نهاراً ورأوا وجهه الذي زاد الغضب من قبحه

لهربت الفرقة ، ولكن الليل جرّده من أقوى أسلحته ألا هو
بشاعته ، وهرب صاحبه أثناء الشجار .

اعتدلت الفجرية فوق الحصان ونظرت في عيني الفارس
وسأله :

– ما اسمك يا سيدي الفارس ؟

– الضابط فوبوس في خدمتك يا حسناء .

وجعل يفتل شاربیه وقد شخ بأنفه كبرياء .

– شكراً لك يا سيدي .

وانزلت عن سرج الحصان وهربت . أما غرينغوار
الذي حطمت السقطة فقد ظل مرمياً ، وأحس بجانبه الذي
يلامس الأرض بارداً ، فعادت إليه ذاكرته وقال فجأة :

– من أين تأتي هذه الرطوبة ؟

فوجد نفسه وسط ساقية ، وحاول أن ينهض فلم يقدر

على الحركة ، فزجر من بين أسنانه :

– أيها الأحذب اللعين !

ولبت في مكانه وجعل يستعيد المشهد الذي حدث أمامه . فتذكر أن العجربة كانت تدافع عن نفسها بين رجلين ، أحدهما كازيمودو ، وثانيهما رئيس الأساقفة الذي أشيع عنه أنه قد باع روحه للشيطان ، فلماذا يطارد زملاءه من السحرة ؟ فهل تحول هذا المنافق عن طريقه الأول ؟ وما زال محلقاً في تأملاته الفلسفية حتى أعادته إلى الأرض برودة الواقع فهتف :

- آه .. إني أتجمد .

ولكن برزت أمامه مشكلة أخرى ، فقد جرت نحوه جماعة من الأولاد المشردين العراة شبه المتوحشين وهم يصرخون بأعلى أصواتهم . ويسحبون وراءهم كيساً مملوءاً بشيء ما وينادون :

- أوستاش موبون ، الحداد الملعون ، أخذه إليه إبليس

فلنحرق كيسه .

ورموا الحصار فوق غرينغوار الذي كان غافلاً عنهم ،
ثم أخذ أحدهم قبضة من التبن وأشعلها بالنار المتوقدة تحت
السيدة العذراء وأحرق بها الحصار .

وقع غرينغوار بين النار والماء ، فبذل جهداً جباراً لينهض
ويرمي الحصار على الأولاد ويهرب ، وهتف الأولاد :
- يا سيدتنا العذراء ، هاهو الحداد قد جاء . وتفرقوا في
كل مكان .

الفصل السادس

الجرة المكسورة

بعد أن ركض غرينغوار مدة من الزمن دون أن يعرف أين تسوقه قدماءه ، حاول أن يتوجه إلى ناحية معينة ، فلم يجد في طريقه سوى مجموعة من البيوت لا منافذ لها غارقة في الأوحال وكأنما هي كوابيس متتابعة ، ولمح فجأة نوراً محمر الوهج ، فانعطف إلى شارع طويل منحدر لا رصيف له ، في نهايته هذا النور يدعو إليه كأنه منارة ميناء ، ولاحظ أنه لم يكن وحده المتوجه إليه ، فقد كانت ترافقه أشباح أشخاص يجرون خطاهم أو يزحفون .

ولم يكن شاعرنا يخاف على محفظة نقوده فتابع طريقه مع هذه اليرقات التي تحيط به وتسعى معه ، وكلما أوغل فيه تزايد من حوله عدد العور والعميان والبُصر يفأفئون ويحشرون ، ووجهتهم ذلك النور ، مثلما تخرج البزاقات

بعد المطر ، وخطر له أن يعود أدراجه ، ولكن فات الأوان ،
فقد أغلق هذا الموكبُ الرهيب طريقَ العودة وراءه وأحاط به
من كل جانب ، ووصل أخيراً إلى نهاية الطريق ، فإذا هو
يفضي إلى ساحة واسعة تشرق ضبابه آلاف الأضواء ،
فدخلها .. إنها (ساحة الأعاجيب) التي لا يدخلها رجل
محترم في مثل هذه الساعة من الليل ، وقد تجمع فيها كل
المتسولين والمتظاهرين بالعجز والمتعامين وكل الذين صبغوا
أجسادهم بدمامل لا بُرء منها ، وكل اللصوص وقطاع
الطرق والقتلة من كافة الأصناف والأجناس ، كل هؤلاء
تجمعوا في حفرة القاذورات هذه .. والساحة الواسعة محاطة
بالأضواء غاصة بالكائنات الغريبة التي تتحرك هنا وهناك .
كان خوف غرينغوار يتزايد شيئاً فشيئاً . وسمع فجأة
صوتاً يرتفع من وسط الضجيج صارخاً :
- خذوه إلى الملك .. خذوه إلى الملك !

وقبضوا عليه واجتازوا به الساحة ، وتوقف حرسه ذوو
الأسمال أمام نار مشتعلة على مصطبة مرتفعة وقد نصب
فوقها برميل وجلس فوقه شحاذ ، وسأله من فوق عرشه :

- من هذا الحقير ؟

وفأفاً غرينغوار :

- يا معلم .. يا سيدي .. كيف يجب أن أدعوك ؟
- نادني يا مولاي .. أو يا صاحب الجلالة .. أو أيها
الرفيق ، أو كما تشاء ، ولكن بسرعة .. ما اسمك يا حقير ؟
إنك الآن أمام ثلاثة ملوك : أنا وملك تاونس وماتياس
سييكالي ملك مصر وبوهيميا ، ونحن قضاتك ، لقد تسللت
إلى مملكة الخرافيش دون أن تكون حرفوشاً ، واخترقت
حدود مدينتنا ، وينبغي أن تنال جزاءك ، إلا إذا كنت سارقاً
أو شحاذاً أو متشرداً ، فهل أنت واحد من هؤلاء ؟ قال
غرينغوار :

- وا أسفاه ! لم أحصل على هذا الشرف .. لأنني كاتب ..

فقاطعه :

- كفى .. ستشنق !

فقال غرينغوار بصوت هادئ دهش له هو نفسه :

- يا حضرات الأباطرة ، ويا أصحاب الجلالة .. اسمي بيير غرانغوار ، وأنا الشاعر الذي مُثّلت له هذا الصباح مسرحية أخلاقية في قاعة القصر الكبرى . فقال كلوبان :

- هذا أنت يا أستاذ ؟ لقد شاهدتها .. وهل تعتقد أنك

إن أسأمتنا صباحاً ، فلن تشنق في المساء ؟

طلب منهم غرينغوار أن ينتسب إلى جماعتهم . فتداول الملوك الثلاثة فيما بينهم ، وقرروا أن يجتاز امتحان القبول ، إذ ينبغي للمترشح لمملكة الحرافيش أن يفتش جيوب تمثال معلقة عليه الأجراس دون أن يحركها ويرتفع رنينها . وقال لهم ناظم القوافي إنه جاهز لخوض الامتحان ، فأحضر التمثال

وقد عُلق على مشنقة ، وحين توقف عن الحركة أشار الملك إلى سلم قصير مكسور الدرجات لا يكاد يتوازن ، وأمره أن يصعده ، ثم شرح له ما يجب عمله :

- ستقف على رؤوس أصابع قدمك اليسرى وتدور باليمنى حول التمثال ، وتستل محفظته من جيبه ، فإذا فعلت هذا كله دون أن نسمع صوت الأجراس أصبحت واحداً منا ، ثم ننهال عليك ضرباً تسعة أيام .

- وإذا تحركت الأجراس ؟

- تشنق .. وإذا سمعنا أقل حركة تأخذ مكان التمثال ..

هيا .. أسرع !

لم يكن غرينغوار يأمل في الحصول على إعادة المحاكمة أو تأجيلها ، فوقف على السلم وأدار رجله اليمنى على رجله اليسرى ، ومد ذراعه ليمسك بالتمثال ، فترزع السلم ، وحاول أن يتمسك بشيء ما لئلا يهوي فلم يستطع وسقط على الأرض وقد رنت الأجراس كلها معاً . فأمره الملك :

- افهض أيها الغبي .. اشنقوه فوراً !
- ووضعت الأنشودة حول عنقه ، وقبل أن يصفق الملك إعلاناً عن بدء التنفيذ ، قال :
- لحظة ! لقد نسيت أنه من تقاليدنا قبل شق الرجل أن نسأل عما إذا كانت هناك امرأة تريده . وهتف الإمبراطور :
- هل هناك امرأة تريده ؟ .. اشنقوه !
- ولكن صرخة ارتفعت من بين الحرافيش :
- الإسميرالدة .. الإسميرالدة !
- وأفسحوا لها ممراً بينهم .. إنها الفجرية .
- والظاهر أن لجمالها تأثيراً خاصاً في محكمة العجائب ،
- وسألت الإمبراطور بصوت هادئ :
- هل ستشنق هذا الرجل ؟
- طبعاً .. يا أختي . إلا إذا اتخذته زوجاً لك .
- فحركت شفيتها كما اعتادت وقالت :
- أتخذه زوجاً لي .

حتى الآن كان يظن غرينغوار نفسه فريسة حلم
عجيب ، وفكوا الأنشودة من عنقه وأنزلوه عن السلم
وأجبروه على الجلوس ، وحمل ملك مصر جرة من الفخار
دون أن ينطق بكلمة وقدمها إلى غرينغوار .



فقلت له :

- ارمها على الأرض .

فرماها ، وتقدم ملك مصر يتفحصها فوجد أربع قطع ،

فقال له :

– يا أخي إنها زوجتك الآن .. يا أختي إنه زوجك
الآن ، لقد تم تزويجكما لمدة أربع سنوات .. انصرفا .

الفصل السابع

المطعم والمأوى

حين وجد الشاعر نفسه داخل غرفة مقوسة السقف محكمة الإغلاق دافئة ، وأمامه طاولة عامرة بما لذ وطاب من المأكول ، ومعه هذه الفتاة الجميلة ، حسب نفسه بطل إحدى الحكايات الخرافية ، أما هي فلم تعره اهتماماً ، فكانت تروح في الغرفة وتجيء وهي تكلم عنزتها ، فسألها بعد دقائق :

– لماذا اتخذتني لك زوجاً ؟

فأجابته ببساطة :

– وهل أدعهم يشنقونك ؟

فانزعج لجوابها وقال :

– لم يكن هدفك سوى إنقاذي من الإعدام .

– وأي هدف آخر تظنه يدفعني إلى ذلك ؟ إن دافعي

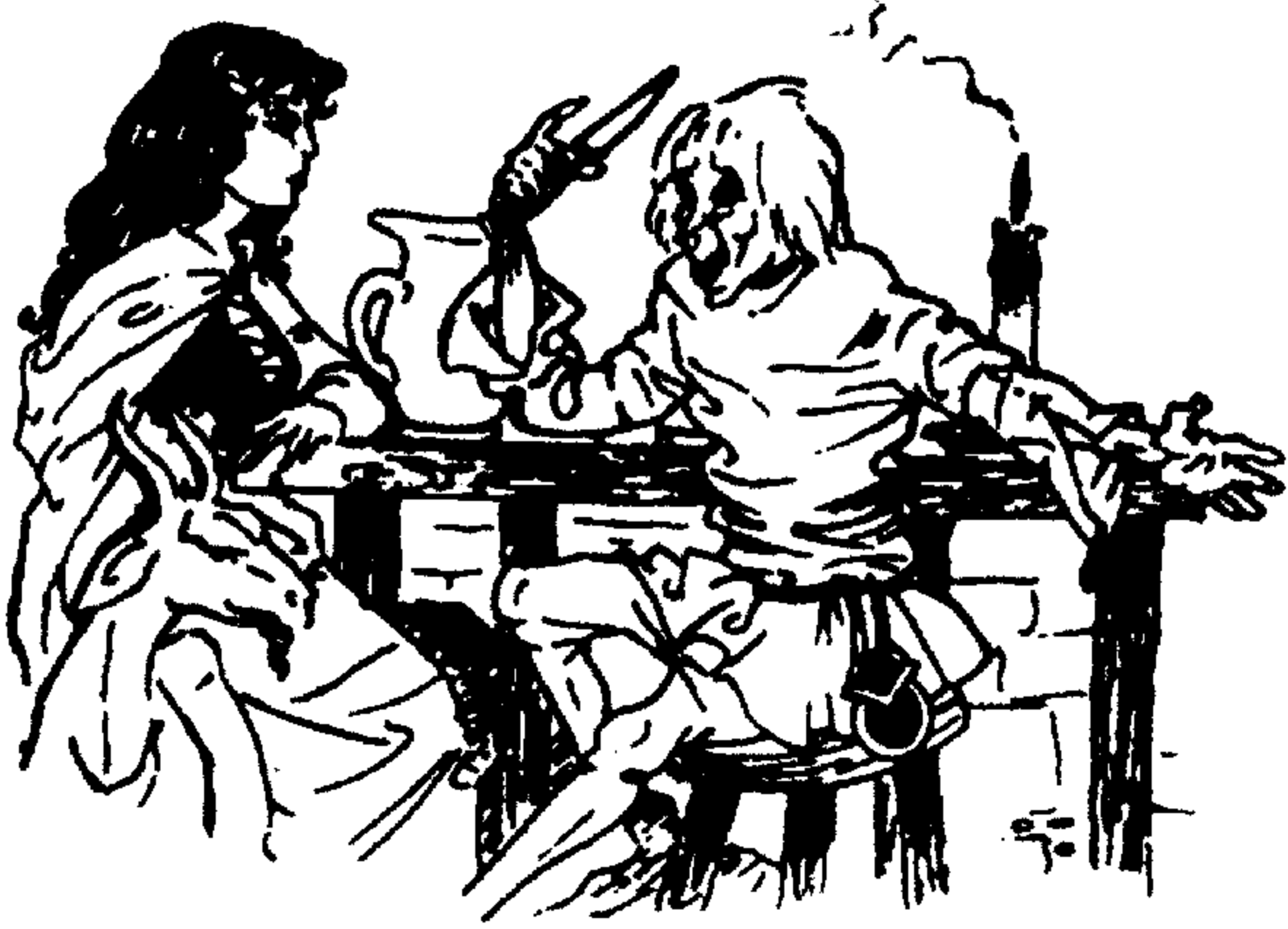
الوحيد هو طيبة قلبي لا حبي لك ..

فقال :

- ولكني حسبتُ أنك .. المهم .. أن عطفك عليّ يعوضني عن حبك لي ، وأعاهدك على ألا أخالف لك أمراً .. ولكن ..

وضحكت ضحكة عالية وهي تسمعه يكمل عبارته :
- ولكن أعطيني العشاء .

بعد قليل كان على الطاولة قطعة خبز وشريحة لحم وتفاحة ذابلة ، فبدأ غرينغوار يأكل بشراهة .
جلست الفتاة أمامه تنظر إليه ساكنة وقد انشغلت بفكرة أخرى ، كانت تدفع الابتسامة إلى شفيتها من حين إلى آخر وهي تمسّد رأس عنزتها الذكية التي التصقت بها ، وكان يضيء هذا المشهد من النهم والحلم شمعدان فيه شموع صفراء ، وساءل غرينغوار نفسه بعد أن ملأ معدته : بماذا .. أو بمن تفكر ؟



ثم سأها :

– ماذا تريدني أن أفعل لأرضيك ؟

– يجب أن تكون رجلاً .

– فماذا ترين أمامك إذن ؟

– أريدك أن تكون رجلاً يلبس خوذة في رأسه ويمسك

سيفاً بيده ، ومهمازين من ذهب في عقبه ، فقال غرينغوار :

– كيف أكون رجلاً وليس للذي حصان ؟

- لا أمنح حيي لرجل لا يستطيع حمايتي . فاحمرّ
غرينغوار إذ أنها تشير إلى الحادثة التي جرت قبل ساعتين
وسأها :

- وكيف استطعت التخلص من برائن كازيمودو ؟
فارتعدت الفتاة :

- ذلك الأحذب المخيف ؟

- كيف أفلتت من يديه ؟

فابتسمت الإسميرالدة وظلت ساكنة .

وسأها :

- هل تعرفين سبب ملاحقته لك ؟

- لا أدري .. ولكن لماذا كنت تلاحقني أنت ؟

- الحق أقول لك ، إني لا أدري .

وقص عليها تفاصيل حياته المضطربة وكيف عاش طفولة
بائسة في شوارع باريس ، وحين بلغ سن الشباب ابتسم له
الحظ فصادف كلود فرولو رئيس أساقفة نوتردام ،

وبمساعده تعلم اللاتينية والفلسفة ، وكان يبدو على الفتاة أنها تصغي إليه ولكنها قاطعتة فجأة :

- فوبوس .. ما معنى هذه الكلمة ؟

- هذه كلمة لاتينية معناها الشمس .

وردت كلمة " الشمس " وقد أشرق وجهها بابتسامة عريضة ، ثم سأها غرينغوار عن معنى اسمها ، فقالت له إنه كلمة غجرية ولا تعرف أكثر من ذلك ، وسأها :

- هذا الرجل الذي زوّجنا وتدعونه ملك مصر .. هل هو زعيم القبيلة ؟

- نعم .

- كم كان عمرك حين جئت إلى فرنسا ؟

- صغيرة جداً .

- وإلى باريس ؟

- السنة الماضية .

- وهل لك أهل ؟

- فلم تجبه ، ولكن غرينغوار يحترق شوقاً لسؤالها :
- هذا المساء حينما هاجمك كازيمودو ، ألم تلاحظني معه
شخصاً آخر قد هرب حين جاء الحرس ؟
- فارتعدت الإسميرالدة وقالت :
- أظن ذلك ..
- ألم تعرفيه ؟
- أظني عرفته .
- ألا يشبه كلود فرولو رئيس الأساقفة الذي حدثتك
عنه ؟

- وازداد خوفها وهي تقول :
- ربما .. وإني متأكدة أنه يكرهني ويظنني ساحرة ،
آه .. أفضل أن أقابل الشيطان ولا أقع في يده .
- بعد فترة من الصمت سمعها تتمم : " فوبوس "
- فقال لنفسه : لا ريب أنها تردد تعويذة سحرية .

وعادت إلى أحلامها ، ووجد أنه لن يعرف المزيد عن هذه المخلوقة الغريبة ، ففضل الانصراف إلى النوم ، وأما هي فلم تتمن له ليله سعيدة ودخلت الغرفة مع عنسزتها وأحكمت إغلاقها . قال الفيلسوف :

- هل تركت لي سريراً ؟

وفتش الحجرة فلم يجد سوى صندوق طويل من الخشب غطاؤه محفورة عليه النقوش .

الفصل الثامن

نوتردام

منذ ست عشرة سنة على هذه الأحداث جاءت امرأة
 مجهولة إلى كنيسة نوتردام يوم الأحد ، ووضعت بيدها
 اليسرى طفلاً صغيراً على غطاء الصندوق الخشبي المنقوش ،
 وهذا الصندوق مخصص للأطفال اللقطاء لكي يتبناهم من
 يشاء ، وكان المخلوق الذي وضعت المرأة على الصندوق سنة
 1467 عجيب الخلقة قد تجمعت حوله حلقة من الناس
 يتفرجون عليه ، وكأنما أخافته نظراتهم فارتفع صوته بالبكاء ،
 وأخرج رأسه من الكيس الملتف به ، ولم يكن رضيعاً وإنما
 قدر عمره حينئذ بأربع سنوات ، ولا تستطيع أن تتخيل
 مخلوقاً أكثر بشاعة منه ، فليس له سوى عين واحدة
 والأخرى مغطاة بجفنيه ، وأما فمه وأسنانه فكانت بارزة
 مستعدة للنهش ، وغابة من الشعر تغطي رأس هذا الساحر

كما سمعته النساء اللواتي رأينه ، وحسبته ينظر إليهن بعين
 شيطان ، واقترحن أن يرمى إلى النار . حينئذ تقدم قس شاب
 فأبعد الحلقة من النساء المتجمعات حوله ونظر إلى هذا
 " الساحر " الصغير ، ووضع يده فوقه وقال :
 - سأبنى هذا الصغير .

وحمله داخل ملابسه الكهنوتية ومضى ، وما إن أفقن من
 دهشتهم حتى مالت إحداهن على أذن جارتها وقالت لها :
 - لقد قلت لك دائماً إن هذا القس الشاب كلود
 فرولو يمارس السحر ، ولم يكن فرولو شخصية متبذلة ، فقد
 وهبه والده إلى الكنيسة ، فصرف اهتمامه إلى الدراسة الجادة
 وكأنما أصابته حمى العلم ، وأمضى أربع سنوات في الجامعة ،
 ولا هدف له في الحياة سوى : المعرفة ، لكن الطاعون الأكبر
 الذي اجتاح البلاد سنة 1466 أودى بحياة أمه وأبيه في يوم
 واحد ولم يترك له سوى أخيه الرضيع ، فانصرف عن حياة
 الفكر إلى العطف على أخيه ورعايته والاهتمام به ، ولفتت

انتباهه يوم الأحد هذه الحلقة من النساء اللواتي أحطن بالطفل اللقيط ، وتخيل أن مصير أخيه قد يكون مثله لولا أنه يعيله ، فعطف عليه وتبناه ، وأطلق عليه اسم كازيمودو أي " الناقص " لأنه كان أعور أحذب معوجّ الساقين .

في سنة 1482 كان كازيمودو قد كُبر ، وعُيّن منذ سنوات قارعاً لنواقيس كنيسة نوتردام بمساعي أبيه بالتبني كلود فرولو الذي وصل إلى منصب رئيس الأساقفة ، وبمرور الزمن جمعت علاقة وثيقة بين قارع النواقيس وبين الكنيسة ، إذ كانت نوتردام المهد الذي فيه تربى ، فهي عشته وبيته ووطنه والكون كله . وحينما تعلق لأول مرة بحبال النواقيس وارتفعت أصواتها كان هذا بالنسبة إلى كلود أولى الكلمات التي نطق بها كازيمودو ، ولكن المصائب لا تأتي فرادى ، ولم يكفه أن يكون أعور أحذب ، إذ فقد سمعه من قرع النواقيس ، ونتج عن صممه صعوبة في النطق ، ولئلا يسخر منه الناس عزم على ألا يتكلم إلا إذا كان وحيداً ، ولذلك

انعقد لسانه ، فإن تحدث إلى الناس لم يُفصح ولم يفهموا ما يقول ، يضاف إلى هذا حبه للشر ، فقد غدا شريراً لأنه متوحد ، وكان متوحداً لأنه قبيح الخلقة ، وابتعد عن الناس ، فلم تعد الكاتدرائية مجتمعه فحسب بل الطبيعة كلها بألواح نوافذها المزينة برسوم الأزهار والنباتات والعصافير ، وقمم أبراجها التي يصعد إليها دون أن يحس بالدوار ، فيتأمل باريس وكأنها بحر هائج تحت قدميه ، لقد كان أحب شيء إلى قلبه في هذا الصرح الأليف نواقيسه الخمسة عشر ، على الرغم من إصابته بالصمم ، وكان أحبها إليه الناقوس الكبير الذي يعتبره امرأة يدعوها ماري إلى جانبها أختها جاكلين ، وأما من بين البشر فكان يخلص حبه لشخص واحد ، ولعله يفضل على الكاتدرائية ، إنه كلود فرولو ، وذلك لسبب بسيط ، إذ أن كلود فرولو هو الذي كفله وأطعمه ورباه ، وكان يلجأ إليه حينما يهاجمه الأطفال وتنبحه الكلاب وتجري وراءه ، وهو الذي علمه القراءة والكتابة ودرّبه على قرع

النواقيس . وهكذا ظل كازيمودو على اتصال بكائنين في هذا العالم : كنيسة نوتردام والقس كلود فرولو .

سنة 1482 ، كان عمر كازيمودو حوالي العشرين ، وكلود فرولو حوالي السادسة والثلاثين . الأول ينمو ويتزعرع والآخر يشيخ ويفقد قواه ، ولم يعد كلود فرولو ذلك التلميذ البسيط في معهد (تورشي) والمدافع الساذج عن طفل صغير ، لقد غدا قساً صارماً وقوراً كئيباً مسؤولاً عن أرواح الناس ، وأول نائب للمطران ، وشخصية هامة تشيع الجزع من حولها ، ولكنه لم يتخل في مسيرة حياته عن أمرين : العلم وتربية أخيه الصغير ، وقد خاب رجاءه في أخيه يوهان فرولو الذي لم يتبع الطريق الذي رسمه له ، إذ أفل أن يراه تلميذاً تقياً وديعاً مثابراً حسن السيرة ، ولكن تبين له أن يوهان شيطان رجيم يحب الفوضى ومعاشرة الرعاع ، وكم كان يلقي عليه الخطب الطويلة والمواعظ البليغة فيبدو على يوهان أنه متأثر بها ، ويُظهر ميله إلى

التوبة ، ولكن ما إن تنتهي تلك الخطبة أو الموعظة حتى يعود إلى ما كان عليه من الفوضى والفساد .

و حين بلغ السادسة عشرة أعلن كلود عجزه عن تقويم أخيه الذي لا طاقة له بمقاومة الشر ، ولكي يدفن أحزانه وخيبة آماله انصرف كلود إلى كتب العلوم ينهل من معينها ، فأصبح قساً متعصباً ورجلاً شديداً الكآبة ، ويقال إنه كان يتردد على المجتمعات السرية بكل أنواعها ، وخاصة تلك التي تشغل بالسحر والعلوم المستورة ، ولعله جازف بفقدان روحه لديها . والثابت أن لرئيس الأساقفة حُجرة صغيرة قائمة بين البُرجين المطلين على ساحة كريف من كنيسة نوتردام يحظر على أي إنسان دخولها ، ولا يمكن التأكيد على أنه يمارس السحر ، ولكن لا دخان بلا نار كما يقال ، إذ كانت لرئيس الأساقفة سمعة شائعة في هذا الميدان . والعجيب أنه أكبر أعداء العلوم السرية المتعلقة بالسحر بنوعيه : الضار والنافع ، فهل كان هذا ستاراً يختفي وراءه لكي يلفت

الأنظار عن حقيقة أمره ؟ ومع مرور السنين أصبح قاسياً على نفسه وعلى الآخرين لا يتسامح مع أي كائن له صلة بالسحر من قريب أو بعيد وهو العدو الأكبر للفجر حيثما وجدوا .

وقد استطاع كلود فرولو أن يستصدر من الأسقف قراراً بمنعهم من ممارسة طقوسهم ، واستعراض فنوفهم من رقص وغناء في الساحات العامة ، كما استطاع أن يستصدر أمراً آخر بإحراقهم إذا ثبت عليهم ممارسة السحر .

الفصل التاسع

كازيمودو أمام القضاة

من صباح اليوم التالي على الاحتفال بانتخاب (بابا المجانين) اجتمع جمهور غفير من الناس في قاعة (غران شاتليه) ليشهدوا المحاكمة التي يرأسها القاضي فلوريان بابرديق ، وكان في الصف الأول من الحاضرين يوهان فرولو ، وهو التلميذ الذي تراه في كل مكان من باريس يصفق أو يهتف أو يمازح أصحابه أثناء انتخاب (بابا المجانين) ، فلكر صاحبه بمرفقه وقال له :

- من سيحاكمون الآن ؟ ها قد جاء الجنود .

ثم وقف على رؤوس أصابع قدميه ليرى جيداً ، وقال :

- آه .. ما أجمل هذه المحاكمة .. إنه (بابا المجانين)

الذي انتخب بالأمس قارع النواقيس الأعور الأحدب .

ودخل كازيمودو مربوطاً بالحبال وقد شددت عليه الحراسة . وكان كئيباً صامتاً هادئاً . ومن حين إلى آخر يلقي بعينه نظرة غضب إلى تلك الحبال التي أوثق بها ، أما القاضي فلوريان فكان يقلب أوراق ملف الاتهام الذي أعده كاتب المحكمة ويتأملها ، وبذلك يتمكن من الاطلاع على كل تفاصيل القضية ، ويعرف اسم المتهم وحالته المدنية دون أن يعرف أحد أنه أصم لا يسمع شيئاً ، وكان عازماً على تسير الدعوى ضد كازيمودو بهذه الطريقة ، فرفع رأسه عن الأوراق وانحنى إلى الوراء وأسبل جفنيه وبدأ الاستجواب بهذه الوضعية المهيبة :

— ما اسمك ؟

ولم ينتبه إلى حالة كازيمودو أحد ، إذ كان أشد صمماً من القاضي فجعل ينظر إليه نظرات ثابتة ولا يجيب ، ولم ينتبه القاضي أيضاً إلى صمم المتهم ، فظن أنه أجاب مثلما يفعل المتهمون جميعاً .

فتابع استجوابه بطريقة آلية غبية :

- حسناً .. كم عمرك ؟

ولم يجبه كازيمودو عن هذا السؤال أيضاً فتابع القاضي :

- حسناً .. والآن إلى الحالة المدنية .

وخيم السكون ذاته ، وبدأ الحاضرون يتهايمسون وينظر

بعضهم إلى بعض ، وتابع القاضي قائلاً :

- نكتفي بهذا القدر من الأسئلة ، أنت متهم أمامنا بما

يلي :

أولاً بإقلاق الراحة ، ثانياً بمحاولة الاعتداء على امرأة

مجنونة ، ثالثاً بعصيان رجال الدولة ومنعهم من ممارسة

مهامهم الموكلة إليهم . ما دفاعك أمام هذه الاتهامات ؟ أيها

الكاتب هل دونت دفاع المتهم ؟

وجاء جواب هذا السؤال ضحك الجمهور وقهقهاتهم ،

وبلغ من حدة أصواتهم أن ينتبه إليها الأصمّان : المتهم

والقاضي ، فالتفت إليهم كازيمودو مستخفاً بهم ، وزجر
القاضي فلوريان المتهم قائلاً :

- هل تضحك الناس بأجوبتك .. أتعرف ما جزاؤك ؟
ومن يكلمك ؟

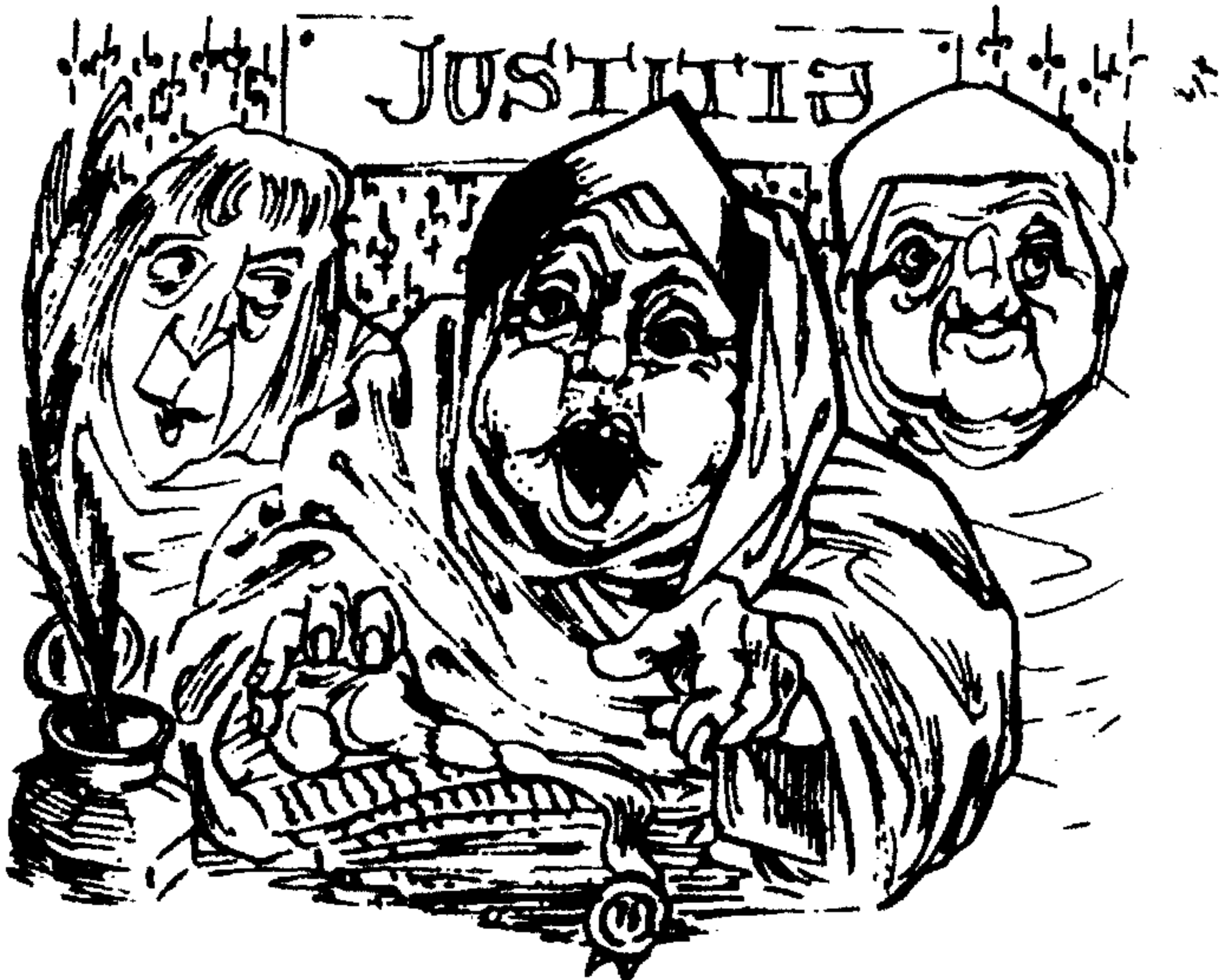
فلم يعد أحد يتمالك نفسه من الضحك سوى كازيمودو
الذي ظل جامد القسمات ، لأنه لا يفهم شيئاً مما يدور
حوله .

وحاول القاضي أن يفرع المتهم ، وتنقل عدوى فزعه إلى
الحاضرين ، فصرخ فيه :

- أنت أيها الشيطان الذي تمنع القاضي من ممارسة
مهامه ، والشرطة من القيام بواجبها ، والله لأجعلنك عبرة
لمن يعتبر .

وكان من الممكن أن يستمر في خطبته البليغة هذه
ساعات لولا أن فُتح الباب الصغير المؤدي إلى غرفة
الاجتماعات ، ودخل منه رئيس القضاة نفسه ، وكان قد

استيقظ متعكر المزاج ، ووصل إلى الجلسة متأخراً ، فسأل
المتهم بصوت شرس : ماذا فعلت أيها المجرم حتى جيء بك
إلى هنا ؟



وظن المسكين أنه يسأله عن اسمه ، فقطع سكون القاعة
بصوته الأجهش :
- كازيمودو .

وتعالت أصوات الضحك مرة ثانية ، أما رئيس القضاة
روبير فقد احمرو وجهه غضباً وصاح :

– أفسخرمني أيها الوغد ؟

فأجابه كازيمودو وقد ظن أنه يسأله عن مهنته :

– قارع النواقيس في كاتدرائية نوتردام .

فقال رئيس القضاة خائفاً :

– قارع النواقيس ؟ لقد حانت ساعة دق ناقوسك

وسوف تسمعه باريس كلها .. أسمع أيها البليد ؟

فقال كازيمودو : تريد أن تعرف عمري ؟ سأبلغ

العشرين في عيد القديس سان مارتان .

– آه .. أقزأ بهيئة القضاة أيها البائس ؟ أيها الضابط ..

خذ هذا المتهم واضربه بالسياط في ساحة كريف وأعدده إليّ

بعد ساعة !

واستمر الكاتب في تسجيل خلاصة الحكم إذ كانت

بسيطة موجزة .

الفصل العاشر

ساحة التعذيب

كانت جموع الناس قد تجمهرت في ساحة كريف ، حيث وقف في أنحائها أربعة ضباط شرطة منذ الساعة التاسعة إعلاناً بتنفيذ عقوبة ما ، لعلها لا تكون الشنق بل الجلد بالسياط أو صلم الأذنين أو شيئاً ما شبيهاً بذلك ..

أما منصة التعذيب فكانت مصطبة ارتفاعها عشر أقدام عن الأرض ، في وسطها دولاب يدور على محور من خشب السنديان الصلب يربط إليه المتهم بحيث إذا دار يدور معه وجه المتهم على الحاضرين ، وهذا ما يدعى (تدوير المجرم) .

وصل كازيمودو فأثار عاصفة من التصفير والضحك ، فسوف يعذب على هذه المنصة نفسها التي توج عليها بالأمس (بابا للمجانين) .

ولم يأت بحركة ، إذ كانت القيود والسلاسل تعض في لحمه ، ولا تبدو عليه سوى دهشة المتوحش وغبائه ، وقد عرف أنه أصم ولكنه يظهر كالأعمى أيضاً ، وحين عُري من قميصه أثارت حدة الجمل التي على ظهره ضحك الحاضرين .

وضع المشرفون على التنفيذ ساعة رملية قرب المنصة ، وأمسك الجلاد سوطاً طويلاً له ذوائب بيضاء لامعة تنتهي بمسامير من حديد ، وشمّر بيده اليسرى كُـمَّ يده اليمنى الممسكة بالسوط ، حينئذ وقف يوهان فرولو فوق كتفي أحد أصحابه وهتف بأعلى صوته :

- سيداتي ، سادتي .. تعالوا تفرجوا على عقوبة المعلم كازيمودو ، قارع الأجراس في كنيسة أخي ، رئيس الأساقفة . وتدافع الجمهور وخاصة الأطفال والفتيات ، وخبط الجلاد الأرض برجله فبدأ الدولاب بالدوران ، وحاول كازيمودو أن يتخلص من قيوده ، وارتسمت على

وجهه علامات الرعب ، فزادت من بشاعته وضاعفت من ضحك المتفرجين .

وأهوى الجلال بالضربة الأولى على ظهر كازيمودو ، فصفرت ذؤابات السوط واستقرت على ظهره ، فارتجف لها ألماً ، وكأنه بدأ يدرك ما يحدث له ، فتململ في القيود والحبال ، وتوفزت عضلاته كلها ، ولكنه لم يطلق آهة ألم واحدة ، وهوت عليه ضربة أخرى ، وتبعثها ثانية وثالثة ، والدولاب لا يتوقف عن الدوران ، والضربات تنهال عليه كزخات المطر ، وتفجر الدم من ظهره ، وتناثرت قطرات على جسده الأسمر ، وأصاب المتفرجين رذاذها .

همد جسد كازيمودو وأغمض عينه الوحيدة وسقط رأسه على صدره كالمتماوت .

أخيراً ، اقترب كاتب محكمة شاتليه مرتدياً الملابس السوداء وممتطياً حصاناً أسود ، وكان واقفاً في ناحية منذ بداية التنفيذ ، وأشار بعصاه الأبنوسية إلى الساعة الرملية

وتوقف الجلاد وتوقف الدولاب ، وانفتحت عين كازيمودو
بهدوء .

تقدم إليه خادما الجلاد فغسلا جروحه ودهناها بمادة
لا ندري ما هي ، ورميا عليه قطعة قماش .

لم ينته عذاب كازيمودو بعد ، فقد بقي عليه ساعة من
الجلد ، وقلبت الساعة الرملية على طرفها الثاني ، وترك
الأحدب على دولاب التعذيب ، وقاطلت عليه الشتائم
والإهانات والضحكات والحجارة من هنا وهناك ، وانهاالت
عليه ضربات السوط ، فكانت تظهر على وجهه القبيح
آلامها وتتقلص لها عضلاته ، وفجأة انفرجت الجموع لتفسح
الطريق أمام بغلة تحمل قساً ، فتغيرت قسمت وجه
كازيمودو ، وحلت محل الألم والرعب ابتسامة غريبة وديعة
عامرة بالحنان ، وكلما اقترب القس ازدادت الابتسامة
اتساعاً ترحب بالمنقذ الذي سينتشله من العذاب ، وما إن
أصبحت البغلة على مقربة من منصة التعذيب حتى لوى

القس زمامها ، وعاد بها راجعاً ، إنه رئيس الأساقفة كلود
فرولو .

وعادت الغيمة أشد سواداً على جبين كازيمودو ،
وكانت بقايا ابتسامة ما تزال على شفثيه ، ولكنها تحولت إلى
ابتسامة ألم ويأس وحزن عميق ، وتمر الدقائق ، إنه منذ ساعة
ونصف تقريباً يُضرب بالسياط ويُعذب ويُهان ويُهزأ به
ويُرمى بالحجارة .

— الماء .. الماء !

كانت هذه الكلمة التي نطق بها كازيمودو ، تحرك قلب
الصخر الجلمود ، ولكن وجد فيها الجمهور الباريسي وسيلة
للتسلية ، وصدرت عن كازيمودو استغاثة ثانية :

— الماء .. الماء !

فانفجروا لها ضاحكين ، وكررها كازيمودو ثالثة :

— الماء .. الماء !

حينئذ خرجت من بين الجموع فتاة ترتدي ثياباً عجيبة ،
تصحبها عنزة بيضاء ذهبية القرنين وهي تحمل طبله بيدها ،
والتمعت عين كازيمودو ، إنها الفجرية التي حاول خطفها
الليلة الماضية ، ولم يشك في أنها جاءت لتنتقم منه وتضيف
ضربة أخرى إلى ضربات الجلاد .

تقدمت هادئة ، فتحرك كأنه يريد الهرب منها ، ففكت
من زناها مطرة وحملتها بهدوء إلى شفتي كازيمودو
المتشقتين . حينئذ ، توقرت في عينه الجافة دمة كبيرة
انحدرت بهدوء على وجهه المشوه الذي وفزه اليأس ، ولعلها
أول دمة يذرفها البائس في حياته كلها ، ونسي أن يشرب ،
فظهرت علامات القلق على وجه الفتاة ، وقربت فم المطرة
من شفتي كازيمودو ، فشرب جرعات كبيرة وأطفا ظمأه ،
وحين ارتوى مطّ شفتيه السوداوين لكي يقبل اليد التي
أحسنّت إليه ، ولكن الفتاة التي لم تنس ليلة البارحة سحبت
يدها بحركة الطفل الخائف من عضه حيوان ، فثبت عليها

الأصم البائس نظرة حافلة بالعتاب والأسى اللذين لا يمكن وصفهما ، وكان مشهداً مؤثراً ، مشهد تلك الفتاة الجميلة النضرة والضعيفة في آن واحد ، وهي تهبّ إلى مساعدة هذا المشوّه الشرير ، كان على منصة التعذيب مشهد رائع لا يُنسى . وجعل الناس يحيونها وهي تصفق بيدها وتحتف :
نويل ، نويل .

الفصل الحادي عشر

زيارة الفجرية

لقد انقضت عدة أسابيع على الأحداث التي روينها تفاصيلها ، وكان الوقت أوائل شهر آذار ، والأيام الأولى للربيع بوقته وسحره ، حتى إن باريس كلها قد انتشرت في الساحات والمنتزهات ، وكأنها في عطلة يوم الأحد .

في هذه الأيام التي يصحو فيها الطقس ، وتضيء الشمس بنورها ، ينبغي التفرج على كاتدرائية نوتردام وقت الغروب ، إذ ترسل الشمس أشعتها على واجهة الكاتدرائية ، وتبرز نقوشها المخفورة في الحجر الذي يغدو أحمر اللون ، وفي وسطها وردة تشع كأنها عين تنظر إلى ما حولها .

في زاوية من شارع بارفيس يوجد منزل مبني على الهندسة القوطية يدل على ثراء ساكنيه ، وقد جلست في

شرفته الواسعة عدة فتيات وهن يتمازحن ويتضحكن ،
وتفتح هذه الشرفة على قاعة مفروشة بأثاث من الجلد تزينه
شرائط مذهبة ، وبجانب المدفأة جلست سيدة المنزل ،
وتدعى مدام ألويزدي غوندليه ، ووقف بقرها شاب يرتدي
الثياب الزاهية لضابط في الحرس الملكي ، ومن حين إلى آخر
توجه إليه السيدة العجوز بعض الكلمات بكثير من الملاطفة
المصطنعة ، وتستطيع أن تدرك من غمزتها إلى ابنتها فلورديلي
والكلمات الهامسة التي تتبادلها معها ، أن الأمر يدور حول
خطبة بين الأنسة والضابط ، كما تستطيع أن تلمح من
البرودة التي يتحدث بها الضابط أنه ليس في الأمر قضية
حب ، ولكن السيدة في غمرة إعجابها بابنتها لم تلاحظ
البرودة التي يواجهها بها الضابط ، وهي تعدد له محاسنها
قائلة :

- هل رأيت يا بن عمي ، أهى من هذا الوجه
الضحوك ؟ أو رأيت يدين أرشق أو أشد بياضاً من يديها ؟

أليس عنقها هذا عنق البجعة ؟ أليست ابنتي فلورديلي جديرة
بالإعجاب ؟

فيجبها وهو يفكر بشيء آخر :

- لا ريب في ذلك .

فتدفعه السيدة ألويز دفعة خفيفة في كتفه ، وتقول له :

- كلمها .. قل لها شيئاً .. إنك خجول حقاً .

في تلك اللحظة تدخل بيرانجير وهي طفلة في السابعة ،

وتنادي بعد أن تأملت الشارع :

- انظري يا سيدتي إلى تلك الفتاة الجميلة التي تؤدي

رقصاتها في الشارع أمام الناس وتدق الطبله بيدها !



وتصاعدت من الشارع أصوات الطبله التي تدق عليها

الفتاة .

نظرت فلورديلي إلى الساحة بلا مبالاة ، وقالت :

- إنهم بعض الفجر .

وهتفت صاحباها ، وجرين نحو الشرفة :

- هيا نتفرج .. هيا نتفرج !

وكان الشاب متكئاً على إفريز المدفأة ، ولا ندري فيم

كان يفكر ، فالتفت إليه فلورديلي فجأة وقالت له :

- ألم تحدثنا يا بن العم عن فتاة غجرية أنقذتها في إحدى

دورياتك الليلية منذ شهرين من أيدي عشرة من اللصوص ؟

فقال الضابط :

- نعم ، أعتقد ذلك يا بنت العم .

- لعلها هذه الغجرية التي ترقص في الشارع ، تعال

وانظر إليها ، ربما تتعرف إليها يا بن عمي فوبوس !

فتوجه الضابط فوبوس بخطوات متثاقلة نحو الشرفة .

قالت له فلورديلي :

- انظر .. إنها تلك الصغيرة التي ترقص داخل الحلقة ،

هل هي الغجرية التي أنقذتها ؟

– نعم عرفتھا ، لأن معها عنزتها .

فقلت إحدى صاحبات فلورديلي :

– آه .. ما أجمل هذه العنزة الصغيرة ؟

وسألت بيرانجير :

– وهل قرناها من ذهب حقيقي ؟

وهتفت الفتاة التي تحت الإسميرالدة أولاً ، وأشارت إلى

الكاتدرائية :

– يا عمتي .. من هذا الرجل الأسود الذي في قمة برج

نوتردام ؟

ورفعت البنات عيونهن إلى أعلى ، كان في قمة البرج

المطل على الساحة رجل يتكئ على مرفقيه ، إنه القس وقد

بدت بوضوح بذلته ووجهه بين كفيه ، وكان جامداً

كالتمثال يراقب الساحة . قالت فلورديلي :

– إنه رئيس الأساقفة .

ثم التفتت إلى الضابط .

- يا بن عمي فوبوس ، ما دمت تعرف الفجرية فلم
لا تدعوها للصعود إلينا لتسلى معها ؟

وهتفت البنات وهن يصفقن بأيديهن :

- نعم .. نعم .. نادها !

فأجاب فوبوس :

- ولكن هذا جنون .. لا ريب أنها نسيتني ، ولكن إذا
كانت هذه رغبتكن فسوف أناديها .

وانحنى على الشرفة ، ونادى :

- يا صغيرة .. أنت هناك !

ولم تكن تدق طبلتها هذه اللحظة ، فرفعت وجهها ناحية
الصوت ، وتركزت عيناها على فوبوس فوقفت جامدة ،
وعاود الضابط نداءه :

- يا صغيرة !

وأشار إليها بإصبعه أن تأتي ، فتأملته الفتاة لحظة وقد
احمرّ وجهها ، وجعلت الطبلّة تحت إبطها وتوجهت بخطوات

بطيئة نحو الدار التي ناداها منها فوبوس ، وكأنها عصفور
أذهله ثعبان .

بعد لحظات انفتح الباب ، وظهرت الفجرية مترددة
لاهثة وعيناها الواسعتان تنظران إلى الأرض ، ولم تتقدم
خطوة أخرى ، كان لظهورها تأثير خاص على الفتيات ،
والمؤكد أن رغبة غامضة في إرضاء الضابط قد اجتاحتهم
جميعاً ، وأن البذلة البراقة هي هدف حركاتهن المتكلفة ، وأن
نوعاً من التنافس قد نشأ بينهن منذ حضر الضابط إلى
القاعة ، وبما أنهن على مستوى واحد من الجمال ، فقد دخلن
المعركة بأسلحة متكافئة أملاً في النصر ، وحين دخلت
الفجرية اختل هذا التوازن ، إذ كانت على قدر من الجمال
بحيث شع في القاعة نور غريب منذ وطئت القاعة قدماها ،
وكانك رفعت مشعلاً باهراً في ظلام الليل ، وقد أعشت
عيون البنات رغباً عنهن ، وشعرن كأن عدوة هن دخلت

المعركة ، فتحالفن ضدها جميعاً ، واستقبلن الفجرية ببرودة شديدة . وقطع الضابط الصمت المخيم عليهن فقال :

– والله إنها مخلوقة فاتنة ، ما رأيك يا بنت عمي الجميلة ؟

فأجابته فلورديلي بصوت خفيض :

– لا بأس بها .

وقمامست الفتيات ، وأما السيدة ألويز التي لم تكن أقلهن غيرة منها ، خوفاً على ابنتها ، فخاطبت الراقصة قائلة :

– اقتربي ، يا صغيرة !

وتقدمت الفجرية نحو السيدة النبيلة ، فقال لها الضابط وخطا نحوها خطوات :

– لا أدري أيتها الحسنة ، إن كنت تذكريني ..

فقاطعته وقد رمته بابتسامة ورفعت إليه نظرة وادعة :

– نعم أذكرك .

فلاحظت فلورديلي :

- ذاكرتها قوية .

واستأنف الضابط كلامه :

- لقد نجوتِ تلك الليلة .. فهل أخفتك ؟

فقالت العجورية :

- لا .. لم تخفني .

وشعرت فلورديلي بأن غُتة صوتها عابقة بكثير من

المعاني ، وتعاضم هذا الشعور لديها حينما قال الضابط :

- والله إنها فتاة فاتنة .

وقالت إحدى الفتيات واسمها ديان :

- ولكن ملابسها غريبة .

وأضافت فتاة أخرى تدعى أميلوت :

- وأين تعلمت التسكع في الطرقات بلا صدرية ولا ياقة

قميص ؟

وسارعت الفتيات يسخرن من ثيابها ويلمزنها بكلامهن المهين ، ويرمينها بنظرات السخرية والاستهزاء ، وجعل الضابط يحرك مهمازيه الذهبين ويقول ضاحكاً :

- لا تهتمي بكلامهن .. ولا ريب أن زيك غريب لا يجروُن على ارتدائه .. ولكن جمالك يشفع لك .

فقال الفتاة الشقراء ، واسمها غايفونتين وقد مدت عنقها كعنق البجعة :

- أرى سيدي الضابط من الحرس الملكي قد اشتعلت فيه النار من عيني الفجرية الجميلتين .

فقال فوبوس :

- ولم لا ؟

وكانت الفجرية قد خفضت بصرها لكلام الفتاة ، فرفعت عينيها عن الأرض وقد أشعّت بالفرحة ورمقت بها فوبوس ، واستعادت ذاقها في هذه اللحظة . أما السيدة

العجوز التي ترقب هذا المشهد فقد أحست بالإهانة ولم تعرف لذلك سبباً . وصرخت فجأة :

- آه .. يا رب . ما هذا الذي يتحرك بين قدمي ؟
ما هذا الحيوان القبيح ؟ كانت العنزة قد وصلت بعد طول بحث عن صاحبها الفجرية ، وجعلت تحك قرنيها بقطعة القماش التي غطت بها السيدة النبيلة قدميها ، فمالت الفجرية إلى العنزة واحتضنت رأسها وكأنها تعتذر لها .
وتوجهت ديان وكولومب إلى الفجرية بالحديث :
- لماذا لا تقوم عنزتك بأعجوبة أمامنا ؟

فقلت الفجرية :

- لا أفهم ما تقصدانه .
- أعجوبة ، سحر ، نوع من الشعوذة .
- لا أفهم .

واستمرت في معانقة العنزة والتربيت عليها وهي
تردد : " جالي .. جالي " حينئذٍ لحت فلورديلي كيساً من
الجلد المطرز يتدلى من عنق العنزة .

فسألت الفجرية :

- ما هذا ؟

فرفعت إليها عينين واسعتين وقالت جادة :

- إنه سر .

وفكرت فلورديلي : " لا بد أن أكشف هذا السر " .

وقالت لها السيدة العجوز :

- إذا لم ترقصي لنا ولم ترقص عنزتك فالأحسن أن

تنصرفي .

فلم تجبها الفجرية وإنما توجهت إلى الباب ، وكلما دنت

منه أبطأت خطواتها ثم التفت نحو فوبوس والدمع يترقرق في

عينها .

فهتف فوبوس :

- لا تنصرفي هكذا .. عودي وارقصي لنا .. ما اسمك أيتها الحسناء ؟

ف قالت له ولم ترفع عينيها عنه :

- الإسميرالدة .

فانفجرت الفتيات بالضحك استهزاء باسمها .

أثناء ذلك كانت الصغيرة بيرانجير قد أغرت العنزة بقطعة حلوى ، وجذبتها إلى زاوية القاعة دون أن ينتبهوا إليها ، وسرعان ما انعقدت الصداقة بينهما ، وقطعت الفتاة الفضولية الكيس الصغير من عنق العنزة ونشرت محتوياته على الأرض ، كان فيه حروف أبجدية مكتوبة على أوراق متفرقة ، وما إن رأت العنزة هذه الحروف حتى جذبت بعضها بهدوء - وكانت هذه أعجوبتها - ورتبتها بنظام خاص فوق الأرض بعد شيء من التردد ، وشبكت بيرانجير أصابعها إعجاباً وهتفت :

- فلورديلي .. انظري ما فعلت العنزة !

كانت الحروف المرتبة تشكل كلمة : فوبوس .

وفكرت فلورديلي : " هذا هو سرها " .

وسارع الجميع لهتاف الصغيرة ، ورأت الفجرية تلك الحماسة التي ارتكبتها العنزة ، فاصطبغ وجهها بالحمرة ، ثم شحبت وجعلت ترتجف كأنها مذنبه أمام الضابط الذي كان يرمقها بابتسامة رضا ودهشة .

وقد امتست الفتيات مدهولات :

- فوبوس .. إنه اسم الضابط .

قالت فلورديلي للفجرية :

- إن لك ذاكرة رائعة .

ثم سقطت مغمى عليها ، وصرخت الأم المذعورة :

- بنتي .. بنتي .. اذهبي أيتها الفجرية إلى الجحيم !

جمعت الإسميرالدة الحروف بسرعة وأشارت إلى جالي

وانصرفتا ، على حين كانت البنات والأم يحملن فلورديلي

ويحاولن إنعاشها ، أما الضابط الذي بقي وحيداً فقد تردد لحظات ثم لحق بالغجرية .

الفصل الثاني عشر

قلب رقيق

لئن خرج فوبوس على إثر الفجرية ، فليس لأنه يريد أن يراه الناس بصحبتها ، فالضابط النبيل يرى من المهانة أن يرافق هذه الراقصة في الطرقات ، الفجرية التي تصاحب القتلة واللصوص ، المتهمة بالسحر والشعوذة .

لقد كان حريصاً على سمعته ، ولكنه همس لها دون أن يحرك شففيه أو يتوقف ، وحدد لها موعداً هذا المساء في مكان لا يخشى أن يراه فيه أحد ممن يحيطون بفلورديلي . ووقفت الإسميرالدة فوراً ، لم تكن تلك الساذجة تعرف ما يخبئه لها القدر ، ولكنها كانت تطمح إلى أن تشق طريقها في هذه المدينة الكبيرة وتتطلع إلى عالم المثال ، العالم المجهول الذي ينتسب إليه فوبوس كما يتطلع المؤمن إلى دخول الجنة .

وكان صفاء هذه الفتاة الصغيرة قد جعل منها فريسة سهلة المنال ، ولو كانت امرأة سواها لرفضت هذا الموعد الذي ضربه لها فوبوس ، ولم تكن الإسميرالدة الساذجة لتظن فيه نوازع الشر ، ولم تكن تأمل أن يعاملها كما يعامل فتاة من طبقتها ، وهي على أي حال تتمنى أن تقابله على انفراد ، فقبلت هذا الموعد وكأنه عربون حب .

حينما وصلت إلى الشارع حيث ينتظرها بير غرينغوار زوجها المزعوم لم تلاحظ ما حدث في غيبتها ، وذلك أن الجمهور قد نفذ صبره حين دخلت المنزل ، فأراد غرينغوار أن يرفقه عنه بانتظار عودتها ، وكانت لعبته التي تعلمها بالإضافة إلى الفلسفة ونظم الشعر ، هي أن يرفع بأسنانه هرمًا من الكراسي المتراكم بعضها فوق بعض وفي أعلاها قطعة مربوطة ، وكان شاعرنا قوي الأسنان وقد أراد أن يثبت مقدرة كما أثبتها في نظم القصائد ، فما كاد يرفع هرم الكراسي حتى تهاوى وانطلقت القطعة تخمش من يقف في

طريقها ، وانتهر الفوضى العارمة فالتجأ إلى الكنيسة حيث وجد كلود فرولو الذي أشار إليه أن يتبعه .

وجعل القس يتأمل بذلته ذات اللونين الأصفر والأحمر دون أن يبدو عليه أنه هازئ به ، بل كان جاداً أشد الجدد يرميه بنظرات حادة كاد أن يتجمد لها غرينغوار . قال له :

– إنك تمارس مهنة رائعة .

– لا شك أن الأجدى للمرء أن يتفلسف وينظم الشعر من أن يحمل الكراسي بأسنانه ، ولكن علينا أن نعيش ، وإن أروع الأشعار من البحر الطويل لا تساوي قطعة جبن صغيرة تمضغها الأضراس ، و قد علّمني أصحابي الرعاع هذه الألعاب ، ولا ريب أنها مهنة لا تتناسب مع مواهبى الفكرية ، فلم يخلق الإنسان ليقضي حياته يحمل الكراسي بأسنانه على دق الطبول ، ولكن يا سيدي القس لا يكفي المرء أن يعيش ، بل عليه أن يكسب لقمة عيشه أيضاً .

وكان القس كلود يصغي إليه ساكناً ، وفجأة التمعت
عيناه وحدثتا في غرينغوار حتى ظن انهما تخرقان عمق
روحه :

- حسناً يا أستاذ بيير .. ولكن كيف حدث أن
أصبحت الآن تسعى مع هذه الراقصة الفجرية ؟
وبدا غرينغوار يروي له قصة زواجه العجيب ، وكيف
أن الإسميرالدة قد أنقذته ، واعترف بفضلها عليه ، وهو يراها
مخلوقة مسالمة رائعة ، وأن أهل حارتها يحبونها لمرحها ولطفها
وغنائها . وختم غرينغوار حديثه قائلاً :

- ولا تظن أن أحداً في المدينة كلها يكرهها سوى
شخصين : امرأة منعزلة في برج رولان ، فهي تلعنها كلما
مرت أمام نافذتها ، وأحد القساوسة الذي لا يراها حتى
يخيفها بألفاظه ونظراته .

وحين أنهى غرينغوار كلامه أمسكه القس من كتفيه
وساقه إلى خارج الكنيسة ثم حث خطاه واختفى بين

أعمدها ، ونظر إلى الساحة فلم يجد خطراً يهدده ، إذ أن المتفرجين وضحايا لعبته قد نسوه وهم يتفرجون على الإسميرالدة الفجرية التي لا تفكر إلا بشخص واحد هو فوبوس وبموعده الذي همس لها به .

الفصل الثالث عشر

حب المتوحش

إن الحب المتحكم في شغاف القلب لم ينشأ لدى فوبوس
إذ شاهد الإسميرالدة ، وإنما نشأ في قلب قارع الأجراس في
كنيسة نوتردام ، لقد كان كازيمودو - الأعور الأصم ،
المعوج الساقين ، اللامثيل لقبحه - يحب الإسميرالدة حباً
يفوق حبها لفوبوس ، وهذا سر لم يطلع عليه أحد ، ولكنه
بدّل أجواء المدينة كلها بهذا الحب .

لقد كانت نواقيس الكنيسة من قبل تصدح مرحة
يتسابق رنينها في ألحان موزونة تعلن بأفواهها النحاسية عن
بهجة الحياة ، وأما الآن فقد فارقتها الروح وكأن الكنيسة
الكثيبة قد أدخلت راضية إلى السكون .

لا فرق لدى النواقيس بين رنين الحزن ورنين الأعياد ،
وإنما هي طقوس تُؤدّى بما تقتضيه بلا زيادة أو نقصان .



لو أن العقوبة التي أنزلت بكازيمودو قد نالت سواه
لحطمت روحه ، ولكن القلب القاسي والروح البدائية اللذين
يملكهما كازيمودو يجهلان هذه المذلة ، ولم يحتفظ من منصة
التعذيب إلا بذكرى صافية نضرة كأنها ماء الغدير ، وقد
اتسع أمام بصره عالم جديد أطلعته عليه الإسميرالدة حين
روّت عطشه وهي ضحيته ، فسكنت حينئذ فكره وروحه ،
وكانت صورتها الوضاءة ترافقه في حركاته وسكناته عبر
انكادرائية وفي ذرى هذه الغابات الحجرية من أعمدة
وتماثيل .

وأحياناً كان يبصرها من عليائه ، فيتوقف عن الحركة
وينسى كل شيء سوى النظر إليها والتخلي في جماها .

الفصل الرابع عشر

حب سيد مهذب

لقد رأينا كيف أزهري في قلب ذلك الرجل المشوه حب صادق خجول ، فكيف هو حب ذلك الذي مالت إليه الإسميرالدة ؟ تستطيع أن تكون فكرة عن هذا الرجل حين تعرف المكان الموبوء الذي يرتاده كل مساء مع رفاق السوء ، ومن بينهم يوهان التلميذ المعروف بسيرته الفاسدة . وعلى حين كانت الإسميرالدة تخرق شوارع باريس ودروبها الضيقة المعتمة متوجهة إلى لقائه ، كان هو يقضي وقته مع المتسكعين والمبذرين أموالهم على المتع المتبدلة ، وما إن أصبحت الساعة الرابعة حتى نهض وقال لصاحبه يوهان :

– يجب أن أتركك الآن ، إنها السابعة وعندي موعد مع

حسناء .

وما إن دخل شارع سانت أندريه ديزار حتى أبصر
 أشباح رجال تزحف وراءه ، فلم يهتم بهم فهو رجل شجاع
 يستطيع السيطرة عليهم بقبضة يد واحدة ، وكان اعتداء
 اللصوص على المارة أمراً معتاداً في ذلك العهد ، فما إن
 تغيب الشمس حتى يدخل الناس بيوتهم ولا يخرجوا منها .
 وصل أخيراً أمام باب واطئ وقرعه بعنف ، وسأل
 صوت من الداخل :

– من هناك ؟

فعرّف بنفسه ، فانفتح الباب عن امرأة عجوز ، ودخله
 وهو يسأل كمن تعود المجيء إلى هنا :

– هل الغرفة جاهزة ؟

– في خدمتك سيدي .



ووضعت الدينار الذي أعطاه لها في الدرج ، وحينما
أدارت ظهرها سارع ولد صغير فالتقطه ووضع مكانه ورقة
شجر صغيرة يابسة .

وجعل فوبوس يتمشى في الغرفة بفارغ الصبر ، فكانت
أرضيتها تصدر أصواتاً غريبة وكأنها ستتهار تحت قدميه .

الفصل الخامس عشر

الحب البريء

فجأة سمع صوت الدرج الخشبي يثن تحت خطوات شخص يصعد ، ثم جاءت العجوز تحمل المصباح ووراءها الإسميرالدة الحسناء ، لقد أسلفنا القول إن هذه الفتاة الساذجة قد وجدت أمراً طبيعياً أن ترى فوبوس في هذا المكان المنعزل ، ولكن حينما تركتها صاحبة البيت وبقيت وحدها أحست بانقباض في روحها ينبئها بأنها لم تكن على صواب ، فاحمرت خجلاً وندماً وفرشت رموش عينيها ظلاً على خديها ، وجلست أمامه على مقعد خشبي ، والعنصرة قابعة أمام قدميها .

وحاولت أن تعتذر فقالت دون أن ترفع عينيها :
 - ليعذرني سيدي إذا قلت له إني أحس بالذنب .

فأجابها بلهجة افتخار واعتزاز :

– ولماذا الاعتذار أيتها الحسناء ؟

– لأني جئت معك .

فقال لها :

– لا أعذرك ولكني أحقد عليك .

نظرت الفتاة جزعة :

– ولماذا تحقد علي ؟

– لأنك تمتعت عليّ مدة طويلة .

بقيت الإسميرالدة ساكنة برهة ثم انحدرت الدموع من

عينها وتنهدت قائلة :

– آه يا سيدي .. إني أحبك .

وكان يضوع من الفتاة عطر الطهارة والبراءة ، حتى إن

فوبوس لم يشعر بارتياح ، ولكن أعجبه هذا القول فقال :

– تحبينني ؟ ثم طوق خصرها بذراعيه ، فتابعت قولها :

- فوبوس ، إنك رجل شهم كريم أنقذت حياتي ، أنا الفتاة الفجرية ، ولطالما حلمت بأن ينقذ ضابط حياتي ، وكنت أنت تفسر حلمي بجمالك وقوامك وسيفك .

لم يسمع فوبوس طول حياته مثل هذه الموسيقى ، لأن السيدات من طبقته يتكلفن الحديث بعبارات منمقة تمس سمعه ولكنها لا تمس قلبه ، وأما هذه الفجرية فقد تسربت كلماتها إلى شغاف قلبه ، ولو كانت في حضرة رجل عالي النفس كريم الروح لجثا على ركبتيه أمامها طالباً الصفح لأنه جاء بها إلى هذا المكان الموبوء .

أما فوبوس فلم تكن له من المزايا سوى قوة بطشه وجمال وجهه ، ولكنها لم يسهما في الرقي بروحه .

وقد أمتعته وَجَدُ الفجرية به ولم يدهشه ، فنهض كالطاووس يستعرض قوامه ويتمشى لكي تسمع رنين مهمازه .

فهمت الفتاة :

- آه .. ما أروعك !

فعلت وجهه ابتسامة واتخذ مكانه بجانبها وقال :

- اسمعي يا عزيزتي .

- لا .. لا .. لا أريد أن أسمع منك سوى كلمة

واحدة : هل تحبني ؟

- تسأليني إن كنت أحبك ؟ يا ملاك حياتي ، إن

جسدي ودمي وروحي ملك يديك ، إني أحبك ولم أحب

امرأة سواك .

ولطالما ردد هذه العبارات المعسولة على مسامع الفتيات

قبلها ، بحيث اندفع في إلقائها دون أن تخونه ذاكرته ،

وأحست الفجرية كأنها تحلق في السموات العلى وقد تملكها

حب ملائكي فهمست :

- آه .. كم أتمنى لو أموت اللحظة !

وهتف الضابط :

- تموتين ؟ ماذا تقولين يا ملاكي الجميل ؟ إنها بداية الحياة الهائلة لك ، اسمعي يا عزيزتي سمحاً .. عفواً الإسميرالدا .. ولكن اسمك الشرقي يصعب علي النطق به .

- يا إلهي .. كنت أظن اسمي متميزاً لا يشبهه اسم آخر .. وإن شئت ناديني غوتون .

- لا تبكي لهذا الأمر اليسير .. سأعتاد عليه ، وسوف أحفظه عن ظهر قلب ، وأعرف فتاة تموت حسداً منك .

- من هي ؟

- وهل يهملك أمرها ؟ هل تحبيني ؟

- آه ..

- هذا كل ما يهمني ، وسترين كم أحبك أيضاً ، وليأخذني الشيطان إليه إن لم أجعلك أسعد كائنات الأرض . سأستعرض تحت نافذتك فرقتي العسكرية ، سأخذك لتفرجي على أسود القصر الملكي ، وهي حيوانات متوحشة ، كل النساء يحبن هذا .

كانت الفتاة غارقة في أفكارها مسحورة بها تسمع
كلماته دون أن تصغي إلى معانيها ، والتفتت إليه فجأة
وقالت بلهجة حب عارم :
- دعنا نتزوج فوراً .

فارتسمت على وجهه تعابير الدهشة والكراهية ،
وفكر : " هذه الفجرية المتشردة الراقصة على الطبله .. هل
هي مجنونة حتى تطمح إلى الزواج بي ؟ وأنا الذي أتوقع منها
متعة عابرة ؟ " .

ونظرت الفجرية إليه فلم تعد ترى فيه فوبوس الذي
تخيلته ، وإنما شخصاً آخر له ملامح القاتل ، وهجم عليها
يريد افتراسها ، فالتمع خنجر وصرخ الضابط :
- أيتها الملعونة !

وأغمي عليها .

وحين أفاقت من غشيتها ، وجدت نفسها محاطة
بالجنود ، وقد حملوا الضابط الغارق في دمائه ، والنافذة المطلة

على النهر مفتوحة على مصراعيها ، وسمعت من يقول
بجانبيها :

- إنها ساحرة ، طعنت ضابطاً .

الفصل السادس عشر

إسميرالدة أمام القضاء

كان غرينغوار وكل سكان (ساحة العجائب) في حالة من القلق القاتل ، وقد مرّ شهر على اختفاء إسميرالدة مع عنزتها ، وقد بحث عنها ملك مصر وأتباعه من المجرمين ولم يعثروا عليها .

ذات يوم كان الشاعر يمر أمام المحكمة ، فرأى جمعاً غفيراً من الناس فسأل أحد الفتيان :

— ماذا يحدث هنا ؟

— لا أدري يا سيدي .. يقال إنهم يحاكمون فتاة اغتالت ضابطاً في الحرس الملكي ، وأظنهم تحدثوا عن قضية تتعلق بالسحر ، وإن أخي رئيس الأساقفة في نوتردام ضالع فيها .

لم يجرؤ غرينغوار أن يقول للفتى إنه يعرف أخاه رئيس الأساقفة ، والذي لم يره منذ شاهده وهو يرفع الكراسي

بأسنانه . وتابع الفتى طريقه ومشى كرينغوار وراء الجمهور الذي يصعد الدرج .

قال في نفسه : لا شيء ينسيني همومي مثل حضور المحاكمة .

كانت القاعة فسيحة معتمة مما زادها اتساعاً ، ولم يكن ضوء النهار يخترق نوافذها العالية ، وبدا مَنْ في القاعة كالأشباح تتحرك في الظلام ، وقد اشتعلت الشموع هنا وهناك ، فانعكس نورها على وجوه كتبة المحكمة المنصرفين إلى أوراقهم .

وسأل غرينغوار شخصاً بجواره :

- من هؤلاء الرجال المصطفون هناك ؟ هل هم القضاة ؟

فأجابه الرجل :

- أما الرجال في الملابس الحمراء فهم من المحكمة العليا ، والرجال في الملابس السوداء هم قضاة التحقيق .

- وهذا الرجل بشيابه الحمراء الزاهية ؟
- إنه رئيس المحكمة .
- وهؤلاء الخراف وراءه ؟
- انهم محامو الدفاع !
- وهذا الخنزير أمامه ؟
- إنه كاتب المحكمة .
- وهذا التمساح على يمينه ؟
- إنه الأستاذ فيليب لوهليه محامي الملك الخاص .
- وهذا القط السمين على يساره ؟
- إنه الأستاذ جاك شارمولي ، إنه النائب العام في محكمة الكنيسة مع الهيئة الدينية العليا .
- وماذا يفعل كل هؤلاء القوم ؟
- يحاكمون .
- يحاكمون ؟ من يحاكمون ؟ لأني لا أرى المتهم .

- إنها متهمة ، هي امرأة لا تراها من مقعدك هنا لأنها
أدارت لنا ظهرها وأخفاها الزحام عنا .
وسأله غرينغوار :

- من هذه المرأة ؟ هل تعرف اسمها ؟
- لا يا سيدي فقد جئت الآن ، ولكن القضية تتعلق
بالسحر حتماً لأن الهيئة الدينية تشهد المحاكمة .
هناك طلب منهم رجل بجانبهم السكوت فقد بدأت
المحاكمة .

تكلمت امرأة عجوز ملتفة بشياها ولا يظهر منها سوى
عينها فقالت :

- يا سيدي الكريم ، أنا امرأة فقيرة أسكن منذ أربعين
سنة حارة سان ميشيل المطلة على النهر ، وذات يوم طرق
الباب ضابط وطلب مني غرفة في الطابق الأول ، ودفع لي
ديناراً وضعته في الدرج ، وقلت لنفسي : سأشتري به غداً
لحماً من السوق ، وبعد قليل طرقت الباب فتاة غجرية ومعها

تيس أبيض أو أسود ، لا أدري ، ولم تنظر الفتاة إليّ ولكن التيس حدّق بي بعينين ملتهبتين ، وصعدتُ إلى غرفة الضابط والتيس يتبعهما ، وبعد وقت قصير سمعت صرخة مخيفة وشيئاً يسقط على أرض الغرفة ، فجريت ويا للهول ما رأيت ! غرفة ملوثة بالدماء ، والضابط ممدد على الأرض وقد انغرس خنجر في عنقه ، والفتاة مثل القتيلة ، وأما التيس فكان يقفز في كل مكان ، فاستدعيتُ الحرس فدخلوا ، وشرحت لهم ما حدث ، وصعدنا جميعاً إلى أعلى .. وحملوا الضابط المسكين وألّهضوا الفتاة ، ولكن الأمر الذي اقشعر له بدني هو أنني حين فتحت الدرج لآخذ الدينار ، وجدته قد تحول إلى ورقة شجرة يابسة . وسكتت العجوز .

وارتفعت همهمة عالية بين جمهور الحاضرين .

وقال أحد جيران غرينغوار :

- هذا التيس وهذه الورقة اليابسة تفوح منها رائحة

السحر .

وكان غرينغوار متفقاً معه في رأيه ، ثم نهض القاضي
الذي شبهه غرينغوار بالتمساح وقال :

- وهل جئت معك بتلك الورقة اليابسة التي تحول
الدينار إليها ؟
فأجابت :

- نعم يا سيدي .. لقد وجدتها .. وها هي ذي !
فأخذها الكاتب وقدمها للتمساح الذي هز رأسه
وأرسلها إلى محامي الملك ثم إلى الهيئة الدينية بحيث تنقلت بين
أيدي القضاة كلهم .

قال الأستاذ جاك شارمولي :
إنها ورقة بتولة وهي دليل قاطع على ممارسة السحر ،
وقد أزال هذا الرأي القاطع كل شكوك الحاضرين .
وتابع محامي الملك قائلاً :

- إن بين أيدي السادة كل الوثائق بما فيها أقوال فوبوس
شاتوبرس .

وما أن نطق اسمه حتى نهضت المتهمة وظهر رأسها ،
فارتعد غرينغوار إذ كانت الإسميرالدة .

كانت شاحبة ، وأما شعرها الذي كانت تمسده وتجدّله
فقد تناثر أشعث حول كتفها ، وشفتاها زرقاوان وعيناها
غائرتان من الرعب ، وهتفت :

– فوبوس ؟ أين هو ؟ يا سادتي بحق الله قولوا لي قبل أن
تقتلوني إن كان ما يزال حياً .

فأجابها رئيس القضاة :

– اخبرسي يا امرأة ، ليست هذه القضية الآن !

فشبكت يديها الرقيقتين ضارعة وقالت :

– أرجوكم ، قولوا لي إن كان ما يزال حياً .

فقال محامي الملك بجفاء :

– إنه على وشك الموت ، هل فرحت ؟

فارتجت البائسة على مقعدها صامتة وكأنها دمية من

الشمع .

– أيها البواب .. أدخل المتهمة الثانية .

وتوجهت الأنظار كلها نحو باب صغير بجانب القاعة ،
ورأى غرينغوار مندهشاً العنزة ذات القرنين والظّلّفين
المذهّبين ومدت عنقها ، وفجأة رأت الغجرية فقفزت فوق
الطاولة وفوق رأس الكاتب ، وجلست فوق ركبتى
الغجرية ، وجعلت تحك رأسها بقدمي صاحبها تستجدي
منها كلمة أو لمسة حنان ، ولكنها ظلت جامدة ولم ترفع
جالي نظرها إليها .

وقالت العجوز :

– إنها هي .. الحيوان البشع .. وأعرفهما الآن جيداً

وتدخل جاك شارمولي :

– إذا أذن لي القضاة فسأعمد الآن إلى استجواب

العنزة . حينئذ نهض محامي الادعاء للهيئة الدينية وقال :

- إذا استمر الشيطان الساكن جسد العنزة في
ألاعيه ، فسوف نضطر بعد إذن هيئة القضاء الموقرة إلى
إحراقها حية .

وتصيب العرق بارداً من جبين غرينغوار ، ثم أمسك
شارمولي بطلبة الفجرية وعرضها بطريقة خاصة على العنزة
وقال :

- كم الساعة الآن ؟ .

فرمته العنزة بنظرة ذكية ، ثم رفعت قدمها الذهبية
ودقت عليها سبع مرات ، وكان الساعة السابعة فعلاً ،
واجتاحت جمهور الحاضرين حركة فزع ، ولم يعد غرينغوار
قادراً على السكوت فصرخ بأعلى صوته :

- إنها مدربة .. ألا ترونها لا تدرك ما تفعله ؟

وصرخ به الكاتب : سَكُوت .

وتابع جاك شارمولي هذه العملية بأن طلب من العنزة
تاريخ اليوم والشهر والسنة مما يعرفه القارئ من قبل ، وإن

المتفرجين الذين صفقوا لهذه الألاعيب الساذجة التي تقوم بها جالي في شوارع باريس ، قد وجدوا فيها أموراً دالة على السحر تحت قاعة المحكمة ، وقطعوا بأن العنزة هي الشيطان نفسه ، وساءت الأمور أكثر حينما فتح شارمولي الصرة الجلدية المعلقة في ربة العنزة ونثر حروف الأبجدية المتقطعة ، وطلب من العنزة أن تعيد ترتيبها ، فإذا هي كلمة : فوبوس .



وقال رئيس المحكمة :

- أيتها الفتاة ، أنت من جنس الفجر ، وقد تدربت على السحر ، وإنك بالتواطؤ مع هذه العنزة المسحورة

وبمساعدة من قوى الظلام قد عمدت ليلة 29 آذار إلى طعن وقتل ضابط في الحرس الملكي المدعو فوبوس شاتوبرس ، فهل تصرين على إنكار التهمة الموجهة إليك ؟ .

فأخفت الفتاة يديها بين كفيها وهتفت :

- يا للهول .. آه يا فوبوس .. إنه الجحيم .

فسألها رئيس المحكمة برودة :

- أتصرين على الإنكار ؟

فنهضت وقد التمعت عيناها :

- نعم إني مصرة على الإنكار ، أطالب بمتابعة

الاستجواب .

وارتعشت البائسة رعباً ، وجذبها الحرس إلى باب صغير

في صدر القاعة وخرجوا منه جميعاً ، ورفعت الجلسة .

الفصل السابع عشر

الاستجواب

ساق الحرس الإسميرالدة أمامهم وصعدوا بها عدداً من الدرجات وهبطوا أخرى حتى وجدت نفسها في غرفة التعذيب ، ويدعوها تخفيفاً لوقعها على الآذان غرفة الاستجواب ، وحين فتح باب التنور كانت قضبان من الحديد تسد مدخله وكأنه فم تنين أسنانه سوداء يرمي باللهيب ، وعلى ضوء هذه النار اللاهبة وجدت السجينة حولها أدوات مخيفة لا تعرف لأي شيء تستعمل ، ففي وسط الغرفة فراش عريض من الجلد يستعرضه حزام له إبريم من النحاس ، وكماشات وملاقط وحديد عجلة عربية أمام التنور ، هذا الخليط من الأدوات من مستلزمات غرفة الاستجواب .

وكان يجلس باسترخاء على سرير الجلد الجلاد المدعو
بيرا تورتيري وأمامه مساعدان له يرتديان مئزرًا من الجلد
ويحركان نار التنور .

وأحست البائسة برعب لا يوصف وهي تدخل هذه
الغرفة التي وقف في ناحية منها ضابط الاعتقال وفي الناحية
الأخرى رجال الهيئة الدينية ، وفي زاوية كان هناك طاولة
جلس وراءها كاتب المحكمة ، واقترب الأستاذ جاك شارمولي
من الفجرية بابتسامة هادئة وقال :

– يا بنيتي العزيزة هل تصرين على الإنكار ؟

فقلت بصوت خافت :

– نعم ..

– نحن مضطرون في هذه الحالة إلى استجوابك بأكثر

قسوة مما نريد ، هل تفضلين بالجلوس على السرير !

وظلت الإسميرالدة واقفة ، لقد كان هذا السرير الذي

تلوى عليه الكثير من الناس البائسين يخيفها ، ونفذ الرعب

إلى عظامها . كانت واقفة جَزَعَةً بلهاء ، وبإشارة واحدة من شارمولي هجم عليها الخادمان وأجلساها على السرير ولم يؤذياها ، ولكن حين لامست السرير تدفق كل دمها إلى قلبها ، وألقت نظرة تائهة على ما حولها ، وسأل شارمولي :

– أين الطبيب ؟

فأجابته ملابس سوداء :

– إني هنا .

وسأل بيّرا فجأة :

– من أين نبدأ يا حضرة المدعي العام ؟

فتردد شارمولي لحظة وعلى وجهه ملامح الشاعر يبحث عن قافية لقصيدته وقال :

– لنبدأ بالفلقة .

وشعرت البائسة بأن الله تخلى عنها ونبذها الناس ، فارتمى رأسها على صدرها كأنه عضو منفصل عنها لا قوة له تدعّمه ، ودنا منها الجلاد والطبيب معاً ، وبدأ الخادمان

يبحثان في ترسانة الأدوات ، وجذب الجلابد قدميها البضتين
اللتين طالما رقصتا على أرصفة باريس ، ورأت من وراء
غمامة سوداء الفلقة التي يحملها الجلابد ، ثم أحكم إغلاقها
على قدميها ، وأعاد إليها الفرع شيئاً من قوتها .

وصرخت :

– أبعدها عني أتوسل إليكم .

وارتمت على قدمي المدعي العام ، والفلقة تعض قدميها
بأسنانها الحديدية وكأنها نحلة أثقل جناحيها الرصاص .

وبإشارة من شارمولي أعادوها إلى السرير وأحكمت
يدان خشتان الحزام على صدرها . وسألها شارمولي :

– أسألك للمرة الأخيرة أن تعترفي .

– إني بريئة .

فقال شارمولي لبيرا :

– ابدأ !

وشد الجلاد أسنان الحديد ، فأطلقت صرخات بائسة لم
تخترع اللغات الإنسانية مفردات للتعبير عنها بعد .
وطلب شارمولي من بييرا أن يتوقف وقال لها :
- اعترفي !

- أعترف .. أعترف بكل ما تريد .. الرحمة !



كانت مخطئة في تقدير قوتها على مواجهة الاستجواب ،
لقد كانت حياتها حتى الآن مرحلة آمنة وقد هزمتها أول
مواجهة للآلام .

فقال لها المدعي العام :

- إن الرحمة الإنسانية تدعوني إلى أن أقول لك إن نتيجة

اعترافك هي الموت .

فقلت :

- كم أتمنى الموت .

وارتمت كالميتة منطوية على نفسها وحزام الجلد يقسمها
نصفين ، ورفع جاك شارمولي صوته يخاطب الكاتب :
- اكتب أن الفتاة الفجرية قد اعترفت بممارستها أعمال
السحر ، وصنعها للأحجبة الشيطانية ، ومشاركتها في فطير
السبت ، أجيبي !

فقلت بصوت متماوت :

- نعم

- وهل تعترفين باتصالك بالشيطان الذي أخذ شكل
عنزة أليفة ؟

- نعم

- وهل تعترفين بأنك في ليلة التاسع والعشرون من آذار
الماضي استغثت بالشيطان لقتل الضابط المدعو فوبوس
شاتوبرس ؟

ورفعت إلى المدعي العام عينيها الواسعتين وأجابت دون
تفكير :

- نعم !

وكان واضحاً أن كل شيء قد تحطم في داخلها .

فقال شارمولي :

- سجل يا كاتب .

ثم توجه إلى الجلادين :

- فكّوا السجينة وخذوها إلى المحكمة .

وحين دخلت قاعة المحكمة شاحبة تعرج ، استقبلتها

همهمة فرح شاملة ، وكأنه جمهور يشاهد مسرحية هزلية

سوف يعرض عليه آخر فصولها ، وأما القضاة فكان دخولها

أملأ لهم في العشاء القريب ، وحتى العنزة استقبلتها بثغاء

الفرح وأرادت أن تجري إلى صاحبها ولكنها كانت مربوطة

إلى المقعد .

وجرّوا الإسميرالدة إلى مقعدها ، وجلس شارمولي بكامل
أُبهته في مقعده ثم نهض وقال :

– اعترفت الفجرية بكل شيء .

فقال رئيس الجلسة :

– أيتها الفجرية ، هل اعترفت بممارستك السحر

وقتلك فوبوس شاتوبرس ؟

وانقبض قلبها وكانت تنتحب بصمت :

– أعترف بكل ما تريدون ، ولكن عجلوا في قتلي .

وأمسك شارمولي دفترأ وجعل يقرأ فيه ، وألقى أمام

الحضور مرافعة بليغة لا تخلو من المصطلحات اللاتينية

المعبرة .

وانتقل القضاة إلى التصويت فهزوا رؤوسهم بالموافقة ،

وكانوا مستعجلين ، فسمعت البائسة الناس همهم وصوتاً

عالياً يقول :

- أيتها الفجرية ، في اليوم الذي يقرره مولانا الملك
وعند الظهر ستركبين الطُنْبُر حافية القدمين والحبل في عنقك
حتى بوابة كاتدرائية نوتردام وبيدك رطلان من الشمع ، ومن
هناك إلى ساحة غريف حيث ستشنقين حتى الموت ،
وعنزتك أيضاً ، وتدفعين غرامة مقدارها ثلاثة دنانير
ذهبية ، وذلك عقاباً على جرائمك التي اعترفت بها ، وهي
ممارسة السحر وقتل السيد فوبوس دي شاتوبرس ، وليرحمك
الله !

همست لنفسها : إنه حلم .

وقبضت عليها أيدٍ قوية ، ووجدت نفسها في الزنزانة
محرومة من الهواء والشمس ، وكانت تفكر في القبر الذي
يضم جثمان حبيبها ، وكانت نادمة لأنه توجه إلى حتفه
بقدميه ، فماذا لو لم يواعدوها في منزل العجوز ! آه .. كم
كان وسيماً تلك الليلة بمهمازيه البراقين ! وسقطت على
الأرض ووجهها إلى التراب ، ضائعة الآمال .

الفصل الثامن عشر

قلب متقلب

لم يكن فوبوس قد مات ، فالناس من فصيلته تطول حياهم ، وحينما قال فيليب لوهيه محامي الملك لإسميرالدة إنه يموت فكان ذلك خطأ منه أو سخرية بها .

وليس لأن جراحه لم تكن خطيرة ، بل لأنها لم تكن قاتلة ، وقد ظلت حياته في خطر ثمانية أيام ، ولكن فتوته تغلبت على الموت ، وحينما كان في المستشفى بين الحياة والموت استجوبه المدعي العام والهيئة الدينية فأتعبه هذا كثيراً ، ولكنه حين استرد وعيه دفع مهمازيه الذهبيين إلى المشرف على علاجه واختفى .

ولم يكن اختفاؤه ليعيق سير القضية ، فقد تجمع لدى القضاة ما يكفي من الأدلة لإدانة الإسميرالدة ، وقد حسبوا فوبوس ميتاً ، وجرى الذي جرى .

وأما فوبوس نفسه فلم يلفت الأنظار إليه ، ولم يذكر شيئاً من هذه الأحداث لأحد ، لأنه لم يشأ أن تلوث سمعته في هذه المحاكمة ، كما أنه أحس إحساساً غامضاً بأنه كان مسوقاً إلى مقابلة الفجرية بقوة سحرية خفية ، ولا يريد أن تفسد العلاقة بينه وبين فلورديلي ، وهي فتاة جميلة وتجلب معها ورطة هامة .

بعد شهرين من تلك الحادثة التي شفي منها تماماً وكاد ينساها تقدم الفارس العاشق إلى باب مسكن آل غوندلورييه وطرقه ، وانتبه إلى تجمع الناس في الساحة أمام باب كاتدرائية نوتردام ، فظنهم يحتفلون بإحدى المناسبات أو أحد الأعياد ، فربط فرسه في المدخل وصعد فرحاً لمقابلة خطيبته .

كانت جالسة مع أمها ، وهي لم تنس بعد زيارة تلك الفجرية مع عنزتها وكيف أن العنزة ربت اسم فوبوس بحروف تحملها في صرة من الجلد ، وعجبت لغية خطيبها الطويلة ، وحين رآته وجدته مشرق الأسارير ، فاحمرت

خجلاً وازدادت جمالاً بثوبها الأزرق السماوي الذي يتناسب
مع جدائل شعرها الذهبي .

جلست قرب النافذة تطرز صورة مرسومة على القماش
وبجانبتها الضابط يهمس لها بكلمات تعبر عن شوقه إليها ،
ورمى ببصره إلى الشارع وقال :

- ما هذا الجمع الغفير من الناس ؟

فقالت فلورديلي :

- سوف يشهرون بساحرة أمام الكنيسة ثم يشنقونها بعد

ذلك .

ولم يهتم الضابط بكلامها لأنه ظن أن قضية الإسميرالدة

قد انتهت تماماً .

وسألها :

- ما اسم هذه الساحرة ؟

- لا أعرف .

- وما فعلت ؟

فهزت فلورديلي كتفيها وقالت :

- لا أعرف .

قالت الأم :

- آه يا رب .. لكثرة الساحرات هذه الأيام صاروا

يحرقونهم دون معرفة أسمائهم .

وقالت فلورديلي فجأة بصوت خفيض :

- فوبوس .. سوف نتزوج خلال ثلاثة أشهر .. قل لي

إنك لم تحب امرأة سواي .

فأجابها وهو يتأمل ملامحها ليدعم صدق لهجته :

- أقسم لك ، يا ملاكي الجميل !

في تلك اللحظة أعلنت ساعة الكنيسة منتصف النهار ،

وارتفعت همهمة الاستحسان بين الجمهور .

في تلك العربة المشؤومة ، جلست فتاة وقد رُبطت يداها

وراء ظهرها ، ليس عليها سوى قميص طويل ينحسر عن

كتفها ، وشعرها الأسود يتناثر حول وجهها ، ومن خلاله

تستطيع أن ترى حبلاً غليظاً قد التف حول عنقها كما تلتف
الدودة حول الزهرة ، وتحت هذا الحبل يلتمع عقد من الخرز
الأخضر قد تركوه لها تلبية لرغبتها الأخيرة قبل الموت .
قالت فلورديلي بدهشة :

– آه .. يا رب ، انظر يا بن عمي ! إنها تلك الفجرية
البشعة صاحبة العنزة .

والتفت إلى فوبوس الذي كان يشب نظرتة على الطنبر
وقد شحب وجهه ، فأجابها متلعثماً :
– أي غجرية وأي عنزة ؟

وقالت فلورديلي :

– كيف ؟ ألا تذكرها ؟

– لا أعرف عمن تتكلمين !

وخطا خطوة ليدخل إلى القاعة ، فقالت كالآمرة له :
– لنبق هنا حتى النهاية .

واضطر الضابط إلى البقاء . كان الطُّنْبُر قد دخل الساحة وتوقف أمام باب الكاتدرائية ، وخيم الصمت على الحاضرين ، حينئذٍ ، انفتحت درفتا الباب الضخم ولهما صرير مرتفع ، وظهرت كاتدرائية معتمة لا تضيئها سوى بضع شموع حتى المذبح الرئيسي ، وساعدها الخدم على النزول من الطُّنْبُر ، ومشى حافية القدمين وقلبها يدق : فوبوس . وأطلق قيد العنزة أيضاً ، فبدأت تشغو وهي تجري وراء صاحبها ، ووصلت الفجرية حتى درجات الكنيسة والحبل الذي في عنقها يتدلى وراءها .. توقف الإنشاد في الكنيسة ، وتحركت الشموع في الظلام ، ومعها صليب ذهبي كبير يحرسه الجنود السويسريون برماحهم الطويلة وملابسهم الملونة ، وتوجه الموكب نحو المحكوم عليها بالإعدام ، فنظرت إليه ، ولكن بصرها توقف عند الرجل الذي يمشي مباشرة بعد حامل الصليب الذهبي ، وهمست وقد ارتعدت فرائصها :

– إنه هنا هو أيضاً .. القس !

وكان رئيس الأساقفة وقد ارتدى ثياباً مزينة بالخيوط
الفضية زادت من اصفرار وجهه حتى لتحسبه أحد التماثيل
الرخامية .

اقترب رئيس الأساقفة منها بهدوء ثم قال بصوت
مرتفع : أيتها الفتاة .. هل طلبت من الله المغفرة لخطاياك ؟
فنظرت إليه بثبات ولم تجبه ، فرفع يده فوق الفجرية
ونطق عبارة باللاتينية يختم بها هذه الطقوس الكنيسية ، وهي
الإشارة المتفق عليها بين القس والجلاد .

حين توجهت المسكينة إلى الطُبر لتمضي نحو المحطة
الأخيرة ، أحست برغبة في الحياة ، فرفعت عينيها الذابلتين
إلى السماء والشمس وإلى السحب البيضاء ، ثم خفضتهما
لتأمل ما حولها من أرض وناس وبيوت ..

وجذب الجلاد يديها ليربطهما فندت عنها صرخة
مذعورة أو صرخة فرحة . هناك في الشرفة في زاوية الساحة

رأت صديقها .. رأت فوبوس ! لقد كذب القاضي ، وقد كذب القس ، إنه هو لا ريب في ذلك ، إنه هناك ممشوق القامة جميل الوجه في بذلته العسكرية ، وعلى رأسه قبعة الريش وسيفه إلى جانبه .

فصرخت :

- فوبوس ، فوبوس !

وأرادت أن تمد إليه يديها ولكنهما مربوطتان ، ورأته يتكلم مع فتاة بجانبه ، ثم اختفى كلاهما وراء زجاج النافذة .

وصرخت بملء رئتيها :

- فوبوس .. هل أنت هنا ؟

ودارت في رأسها أفكار مخيفة ، لقد لاقت العذاب والذل والمهانة لأنها قتلت فوبوس ، ولكن هاهو ذا أمامها ، ولم يكلف نفسه عناء المشول في المحكمة لإثبات براءتها ، هذا أقوى مما تختمله ، وسقطت على حجارة الشارع لا حراك بها .

قال شارمولي :

- هيا .. احملوها ولننته من هذا الأمر !

لم يلاحظ أحد بين التماثيل المنحوتة وجهاً شبيهاً بمثل هذه الوجوه الشائهة التي أقيمت منذ ستمائة سنة ، وقد مدّ عنقه ونظر بعينه الوحيدة يراقب ما يجري في الساحة منذ منتصف النهار .

كان قد ربط حبلًا متيناً ذا عقد بأحد الأعمدة العلوية وتركه يتدلى قريباً من بوابة الكاتدرائية الجانبية ، وحين سمع الأمر الذي أصدره شارمولي للجلاد نزل على الحبل وقد أمسك به بيديه وقدميه وركبتيه ، وانحدر على واجهة الكنيسة ، كأنه قطرة ماء تسيل على زجاج نافذتها .

وجرى نحو الجلادين بخفة قط سقط من أحد الأسطحة وسدد إليهما لكمة قوية من يده الضخمة ، وحمل الفتاة فوق رأسه وجرى بها إلى الكنيسة وهو يصرخ بصوت هائل :
اللجوء !



وردد وراءه الجمهور :

- اللجوء !

وتعالى تصفيق عشرة آلاف يد ، فالتمعت عين كازيمودو
فرحاً وافتخاراً .

عادت الفتاة إلى وعيها وفتحت عينيها فرأت كازيمودو ،
فأغلقتهما وكأنما أفرعتها رؤية منقذها .

وظلّ الجميع ذاهلين : شارمولي والجلادون والحراس ،
والمعروف أن كنيسة نوتردام حرم لا يمكن اجتيازها ، وتنتهي

سلطة العدالة عند عتبتها ، ولا يمكن القبض على إنسان لجأ إليها .

توقف كازيمودو تحت البوابة الكبيرة حاملاً الفتاة بيديه الخشتين ولكنه يحملها بحذر كمن يحمل زهرة يخشى عليها الذبول .

وخفض إليها عينه العامرة بالحب والعطف والحنان والألم ، ثم رفعها عنها لامعة بالشرر .

كانت النساء يضحكن ويبيكين ، والناس قد اجتاحتهم عاصفة من الإعجاب ، فقد كان كازيمودو الآن جميلاً حقاً ، جميلاً بقوته وشهامته وهو اليتيم الأحذب المعوج الساقين .

كان واقفاً يتأمل هذا الجمع الذي نبذه فعاد إليه مرهوب الجانب ، وانتزع من عدالته هذه الفريسة ، وإذا هذه النمر الضارية تعضّ على الخواء ، وينهزم هؤلاء القضاة والجلادون ، وتنكسر قوة السلطة أمام سلطان الله .

بعد دقائق من النصر اختفى كازيمودو بمن يحمل داخل
الكنيسة ، وهلل له الجمهور طويلاً ، ولكنه لم يعد إلى
الظهور .

وفجأة رأوه في أعلى الكنيسة حاملاً الفجرية بين يديه
وهو يجري ويصرخ كالمجنون :
- اللجوء .. اللجوء ..
وتعالى تصفيق الحاضرين .

أخيراً ظهر مرة ثالثة في قمة برج النواقيس وكأنه يعرض
بافتخار على باريس كلها المرأة التي أنقذها بصوته الضخم
الأجش الراحل الذي لم يسمع من قبل ، يصرخ ثلاث مرات
وكانما لتسمعه النجوم :

- اللجوء .. اللجوء .. اللجوء ..

وأجابه الجمهور :

- نويل .. نويل ..

الفصل التاسع عشر

حق اللجوء

كانت أماكن اللجوء منتشرة في العصر الوسيط سواء في قصور الملوك أو مساكن الأمراء والكنائس الخاصة ، وقد تكون المدينة كلها مكاناً للجوء إذا نقص عدد سكانها ، وأريد أن يعمرها الناس ، وقد جعل لويس الحادي عشر باريس ملجأ سنة 1467 .

حينما يدخل المجرم الملجأ فلا يصاب بسوء ، ولكن عليه ألا يغادر فآلات التعذيب والمشاق والحرس يترصدون به كما تحيط أسماك القرش بالسفينة ، ولذلك يعد الملجأ سجناً مثل سواه ، وقد يُخترق هذا الملجأ بقرار من المجلس النيابي ولكنه أمر نادر جداً .

وكان لكل كنيسة حجرة مخصصة للاجئين ، وفي
كاتدرائية نوتردام تقع حجرة اللجوء في الناحية المطلّة على
الأعمدة الداخلية .

وإليها لجأ كازيمودو بعد صعوده إلى الأبراج .
ولم تكن الفتاة واعية لما يجري حولها بل كانت تحس كأنها
ترتفع في الهواء وتطير ، وأن شيئاً ما يخلق بها فوق الأرض ،
وحينما وضعها كازيمودو في الحجرة ونزع عنها قيودها ، عاد
إليها الإحساس بما حولها ، ووجدت نفسها في نوتردام ،
وتذكرت أن يدين قويتين قد انتزعتهما من الجلال ، وأن
فوبوس حي ، وأن فوبوس لا يحبها ، وقد اضطرعت هاتان
الحقيقتان في ذهنها .

وأحست بطعم المرارة في فمها ، فالتفت إلى كازيمودو
الواقف أمامها يربعها بقامته الهائلة وسأله :

— لماذا أنقذتني ؟

فجعل يتأملها حائراً وكأنما يداول سؤاها في فكره .

فأعادت عليه القول ، فنظر إليها نظرة عامرة بالحزن
وهرب ، وبقيت ذاهلة .

بعد لحظات رجع كازيمودو ومعه صرة رماها أمامها
وابتعد ، كانت بعض الملابس التي تصدقت بها امرأة على
الكنيسة ، وهي ثوب أبيض وشال أبيض أيضاً ، فلبسته
الإسميرالدة .

ورجع مرة ثانية يحمل سلة تحت إبطه ، وفراشاً تحت إبطه
الآخر ، في السلة زجاجة ماء وخبز وبعض المأكّل ، ووضع
السلة على الأرض وقال : كلي .

ومد الفراش على الأرض وقال : نامي .
لقد آثرها بطعامه وفراشه .

ورفعت الفجرية عينيها لشكره ، ولكنها لم تستطع
النطق بكلمة ، إن المسكين بشع المنظر حقاً ، فخفضت رأسها
وارتعشت خائفة ، فقال لها :

– لقد أخفْتُك .. إنني بشع أليس كذلك ؟ لا تنظري إلي ، اسمعيني فقط ، ابقِي هنا طول النهار ، وأما في الليل فتجولي في الكنيسة كما تشائين ، ولكن لا تخرجي منها لا نهاراً ولا ليلاً وإلا شنقوك ، وإذا قتلوك أموت .

أثر فيها كلامه فرفعت رأسها لتجيبه فوجدته قد اختفى ، وظلت وحيدة تفكر في كلام هذا المخلوق الشبيه بالوحش وبصوته الأجش العامر بالحنان .

وتفحصت حجرهما ، كانت حجرة صغيرة ذات نافذة مدورة وباب منخفض وتطل منها على أسطحة باريس كلها .

كانا المنظر كثيراً بالنسبة إلى هذه العجربة البائسة المهتدة بالموت ، وهي اللقيطة التي لا أهل لها ولا سكن ولا وطن .

وفيما كانت غارقة في هذه التأملات المؤلمة اندس رأس مُشعر بين يديها ، فارتعدت فزعة وإذا هي جالي التي هربت على إثرها ، فأمطرهما الفتاة بالقبل وقالت لها :

- آه يا حبيبتى .. لقد نسيتك يا جالى ولكنك
تذكرتنى ، لستِ جاحدة يا جالى ، فأنت تفكرين بي على
الدوام .

وأحست بالوقت نفسه كأنما أزيح ثقل عن صدرها
وأفصح لها المجال للبكاء ، فانسكبت من عينيها الدموع
غزيرة وسالت معها مرارة آلامها .

الفصل العشرون

دودة الأرض ونجمة السماء

من الغد استيقظت وقد أدهشها أن تنام ، فهي لم تعرف النوم منذ زمن طويل ، كانت أشعة الشمس تتسرب من النافذة فأيقظتها ، ولححت في النافذة شيئاً رهيباً ، إنه وجه كازيمودو البائس ، فأغمضت عينيها دون إرادتها ولكن دون جدوى ، إذ كانت تتخيل صورته من وراء جفنيها المغمضين ، وسمعت صوته الأجلج يقول بحنان :

- لا تخافي .. إني صديقك ، جئت لأراك نائمة ، هل تؤذيك رؤيتي لك وأنت نائمة ؟ وهل يضرّك أن تغلقي عينيك بحضوري ؟ سأذهب الآن ، إني وراء الجدار ، افتحي عينيك الآن .

كان شيئاً ما يتجاوز الألم في هذا الصوت الحنون ، ففتحت الفجرية عينيها ولم تجده فأطلت من النافذة لتراه

ملتصقاً بالحائط مستسلماً لأحزانه ، وبذلت جهداً لتغلب
على قرفها وقالت له بهدوء :

- تعال !

وفهم من حركة شفيتها أنها تطرده ، فنهض يجر قدميه
ورأسه على صدره ، ولا يجرؤ على النظر إليها ، فصرخت
ليسمعها : تعال هنا !

فتابع مشيته ، فخرجت من الحجرة وأمسكت بذراعه .
حين أحس بها ارتجف جسده كله ، وحينما رآها تدعوه
إليها التمع وجهه بالفرح والحنان ، وأرادت أن يدخل
الحجرة لكنه أصرّ على البقاء أمام عتبها وقال :
- لا .. لا .. لا يدخل اليوم عش القبرة .

فجلست على فراشها وعنزتها راقدة تحت قدميها ،
وجعلت تتأمله وهو ينظر إليها ولا يقول أحدهما شيئاً .
وقطع السكون أولاً فقال لها : هل طلبت مني الدخول ؟
فقالت له : نعم . وأشارت برأسها ففهم إشارتها وقال :

- للأسف .. إني .. إني أصم .

فقلت بلهجة الندم : يا للمسكين !

- نعم إني أصم ، ولكن كلميني بالإشارات ، ومعلمي

يتكلم معي بهذه الطريقة . فابتسمت وقالت : قل لي إذن ،
لِمَ أنقذتني ؟

وراقب حركة شفيتها بانتباه وأجاب : لقد فهمت ، هل
نسيت ذاك الشقي الذي حاول اختطافك ذات ليلة ، ذاك
الشقي الذي سارعت إلى نجاته من الغد على منصة
التعذيب ؟ قطرة ماء وشيء من الحنان ، هل تكفي حياتي
للوفاء بهما ؟ لقد نسيت ذلك الشقي أم تذكرينه ؟

كانت تصغي إليه والحزن يسكنها ، وترقرقت في عين
قارع النواقيس دمعة ولكنها لم تنحدر ، واستأنف كلامه :

- الأبراج عالية وإذا سقط المرء منها مات قبل أن يبلغ

أرض الشارع .

و حين ترغبين في أن أرمي نفسي لا تنطقي بكلمة ، إشارة
منك تكفي لأخلق في الفراغ .



الفصل الواحد والعشرون

غرينغوار وأفكاره العظيمة

منذ أن رأى بيار غرينغوار تطور هذه القضية وأن فيها حبلاً ومشقة وسواهما من المنغصات في حياة الشخصيات الرئيسية لهذه الكوميديا ، لم يعد يفكر في التدخل فيها ، وقد تأكد له أن المجرمين الذين يعيش معهم هم خير رفاق له في باريس ، وما زالوا يهتمون بمصير الفجرية ، وعرف منهم أن زوجته ذات الجرة المكسورة قد لجأت إلى كاتدرائية نوتردام وأنها هائنة في حياتها .

ولكن لم يخطر له أن يذهب لزيارتها ، كان يفكر بالعنزة أحياناً ، هذا كل شيء .

ذات يوم ، كان واقفاً في شارع (سان جرمان ديكسرواه) إذ أحس بيد ثقيلة تمسك بكتفه ، التفت ، إنه

صديقه ومعلمه السابق السيد رئيس الأساقفة ، ظل رئيس
الأساقفة ساكتاً بضع لحظات كان غرينغوار يتأمله خلالها .
ووجد أن الدون كلود قد تغير كثيراً ، فهو شاحب كأنه
نهار شتائي ، عيناه كثيبان وشعره أبيض ، وقطع القس
الصمت بصوت وقور :

- كيف حالك يا أستاذ بير ؟

- صحتي لا بأس بها إجمالاً .

وحدق القس في عينيه وقال :

- إذن لا شيء يشغلك يا أستاذ بير ؟

- لا والله .

وابتسم القس ابتسامة مرة ترتجف على طرف فمه :

- أنت سعيد إذن ؟

- نعم .

- ولا تتمنى شيئاً ؟

- لا .

- ولا تندم على شيء ؟
- لا أتمنى ولا أندم ، عيشتي هائلة .
- وكيف تكسب لقمة عيشك ؟
- ما زلت أنظم بعض الملاحم والمسرحيات ، ولكن
موردي الرئيسي من تلك المهنة التي تعرفها ، أرفع الكراسي
بأسناني .
- مهنة لا تليق بفيلسوف مثلك .
- إنها نوع من التوازن .
- سكت القس برهة ثم قال :
- بير غرينغوار ماذا فعلت بتلك الراقصة الغجرية ؟
- أليست زوجتك ؟
- نعم تزوجتها بجرة مكسورة لمدة أربع سنوات .
- حسناً فماذا فعل بها الزمان ؟
- أظنهم شنقوها .
- هل تظن ؟

- لا ، بل أعتقد ذلك ، حينما أبصرت جبل المشنقة
انسحبت من اللعبة .

- هذا كل ما تعرفه ؟ اعلمُ إذن أنها لجأت إلى كنيسة
نوتردام ، وإني مسرور لذلك ، ولم أعرف هذا لولا أني
وجدت العنصرة وقد هربت معها ، هذا كل ما أعرفه .
وارتفع صوت القس الذي ظل حتى الآن هادئاً :

- وأزيدك معرفة بأنها ستشنق بعد ثلاثة أيام ، فقد أصدر
المجلس النيابي قراراً باستردادها من الكنيسة .

وكان غرينغوار على قدر من الذكاء يكفي لكي يدرك
أن القضية اتخذت مساراً خطراً ، ولم يأسف لأنه لم يكن
ضالماً فيها ، وأحس تجاه القس - هذا الشيطان في ثياب
مقدسة - بنوع من العداء المزوج بالرعب .

واستنجد بكل معارفه الفلسفية لي طرح هذا السؤال
بلهجة استعلاء :

- وهل العنصرة مع الفتاة ؟

- نعم ، ليأخذها الشيطان .. وما أهمية ذلك ؟
 كان لا يفكر ظاهراً إلا في العنزة الصغيرة ، ولكن
 خطرت له فكرة كاد يرقص لها لولا هذا القس الذي يرميه
 بنظراته .

وحين غادر القس ساءل نفسه عما دفع هذا الشيطان
 إلى إخباره بأن الفتاة ستشنق بعد ثلاثة أيام ، أليس هو الدوق
 فرولو الذي سعى للحصول على هذا الأمر من المجلس
 النيابي ؟

وهاهو الآن يسعى لإنقاذها ، أو يحثه على إنقاذ الفتاة
 التي أنقذت حياته هو . وتطورت في ذهنه خطة وهو في
 طريقه إلى مملكة اللصوص .

الفصل الثاني والعشرون

ليلة تحت السلاح

كان سكان (ساحة العجائب) من القتلة واللصوص ينصرفون في هذا الوقت من الليل إلى صخبهم وهوهم ومجوفهم .

ولكن لو أتيح لأحد الدخول إليها لعجب من الهدوء السائد فيها ، ولرأى هؤلاء القتلة واللصوص قد تفرقوا جماعات يتهامسون فيما بينهم وكأنهم يعدون لأمر خطير .

ونستطيع أن نميز بين هؤلاء ثلاث مجموعات التفت حول ثلاثة أشخاص يعرفهم القارئ : الأول ماتياس سيكالي ملك الفجر بملابسه الغريبة وأصابه التي تلتمع فيها الخواتم الذهبية ، والثاني صاحبنا ملك تاونس المدجج بالسلاح ، والثالث كلوبان تريفو الذي يوزع بصوت وقور ترسانة الأسلحة التي نهبها من مكان لا يعلمه سوى الله .

وكان هؤلاء اللصوص والقتلة يختارون أسلحتهم ويهزونها في الهواء ، حتى المقعدين منهم أو الذين بترت سيقانهم كانوا يمسكون بأسلحتهم ويتدحرجون تحت أقدام أصحابهم كأنهم الصراصير الضخمة .

وأما في ناحية بعيدة عن هؤلاء ، فقد التفت عصاة من الشباب المرحين حول فتى أشقر الشعر محمر الأنف تسليح تسليحاً جيداً يمازحونه ويضحكون لنكاته .

في زاوية منعزلة من حانة الساحة قرب المدفأة جلس فيلسوف يتأمل ورجلاه في الرماد وعيناه إلى اللهب ، إنه بيير غرينغوار .

صاح كلوبان ترويفو بحرافيشه :

– هيا . أسرعوا .. خذوا أسلحتكم .. سننطلق بعد

ساعة .

وصرخ ذلك الفتى ذو الشعر الأشقر :

- نويل .. نويل .. أنا سيد القتلة ، اسمي يوهان فرولو
 من أشرف القوم ، سوف تكون غزوة رائعة ، نحن رجال
 شجعان فلنحاصر الكنيسة ولنكسر أبوابها ، ولننقذ الفتاة
 الحسنة من برائن القضاة ، نفذوا هذا في لحظة عين ، إن
 قضيتنا عادلة ، انهبوا الكنيسة .. وانتهى الأمر ، سنأخذ
 كازيمودو معنا .. هل تعرفون كازيمودو يا إخوتي ؟ هل رأيتم
 كيف عذبه يوم الاحتفال ؟

انتهى كلوبان تريفو من توزيع الأسلحة ، فدنا من
 غرينغوار الذي كان هائماً في أحلام يقظته وسأله :

- بأي شيء يفكر صاحبي ؟

فأجاب غرينغوار :

- لا أدري ، لقد وجدت آلاف الأشياء في هذه النجوم
 التي تطرز عمق المدفأة السوداء .

وخرج كلوبان ونادى بصوت راعد :

- منتصف الليل !

سارع حينئذٍ الجميع في الخروج إلى الساحة وقد ارتفع
صليل أسلحتهم ، فوقف كلوبان فوق المصطبة وصاح :

– رصوا الصفوف .. أيها الخرافيش !

فساد الهدوء واصطف الجميع في صفوف متراصة .

وأضاف :

– ستعبرون الآن باريس دون أن تلفتوا إليكم الأنظار ،

وكلمة السر هي (شعلة العبث) ولا تنيروا المشاعل إلا أمام

نوتردام .. هيا سيروا !

الفصل الثالث والعشرون

الهجوم

لم ينم كازيمودو تلك الليلة وقد أنهى جولاته التفقدية في الكنيسة ، فأحكم إغلاق الأبواب كلها ودعّمها بمتاريس الحديد حتى بدت كأنها أصلب من الجدران ، ومرّ به كلود فرولو وكان مهموماً أكثر من المعتاد ، وقد تعود كازيمودو أن يضربه القس أو يسيء إليه ولكنه يخضع له باستسلام وإخلاص .

ألقي كازيمودو نظرة على النواقيس التي طال إهماله لها ، ثم صعد قمة البرج الشمالي واثكأ عليه وجعل يتفرج على باريس ، كانت الليلة مظلمة ، ولم تكن باريس في ذلك العهد مضاءة ، فكأنها بحر من البيوت المتراكمة يقطعها نهر السين بلمعانه الرمادي ، ولم يلمح كازيمودو سوى نور بعيد يلتمع من ناحية باب سان أنطوان ، ولا ريب أن هناك بعض

الساهرين . أحس قارع النواقيس بشيء ما في داخله يقلقه ولا يعرف له تفسيراً ، وقد أخذ حذره منذ عدة أيام ، إذ لاحظ أن بعض رجال الشرطة يطوفون حول الكنيسة ولا يرفعون أعينهم عن ملجأ الفتاة ، وكأنما بينهم وبينها ثار قديم . ولا بد أن يفعلوا شيئاً للأخذ به . وظلّ فوق البرج يقظاً .

فجأة أحس كأن رصيف النهر يموج بأشباح غامضة . ثم تحولت إلى شارع بارفيس المؤدي إلى واجهة نوتردام ، ولم يستطع أن يميز عددهم في الظلام ، وتأكد له أنهم لا يحدثون ضجة لأن نوافذ البيوت المطلّة على الساحة ظلت مغلقة ، ولكنهم يتدفقون إلى الساحة بانتظام ، والتمتع النور فجأة ، وبلحظة واحدة اشتعلت سبعة أو ثمانية مشاعل في وقت واحد ، ثم تنقلت فوق الرؤوس يتراقص لهبها .

استطاع كازيمودو أن يميز حينئذٍ جمهوراً غفيراً من الرجال والنساء في أسماهم البالية ، مسلحين بالمعاول

والفؤوس والمناجل والمذاري تلتمع نصالها تحت أضواء
المشاعل . تناول كازيمودو فانوسه وهبط إلى المصطبة ما بين
الأبراج ليرى عن كثب ويقدر وسائل الدفاع .

وصل كلوبان ترويفو أمام بوابة نوتردام الكبرى وقد
رتب كتيبه فصائل وصعد إلى الحاجز المرتفع في الساحة
وصاح بصوت أجش :

— أتوجه إليك ، لويس دي بومون ، أسقف باريس
والمستشار في محكمة المجلس ، أنا كلوبان ترويفو ملك تاونس
وأمر الحرافيش وأسقف المجانين وأقول لك : إن أختنا التي
أديننت بالسحر ظلماً قد التجأت إلى كنيستك ، فأنت
مسؤول عن أمنها وسلامتها ، ولكن محكمة المجلس النيابي
ستستردها بموافقتك لتشنقها غداً في ساحة كريف ، لذلك
نطالبك بأن تعطينا الفتاة إذا أردت إنقاذ كنيستك وإلا
انتزعنا الفتاة ونهينا الكنيسة ، وعلى هذا فإني أغرس رايتي
هنا ، والويل لك يا أسقف باريس !

لم يسمع كازيمودو للأسف هذا الكلام الذي يدل على الكبرياء المتوحشة ، وقدم أحد المجرمين الراية لكلوبان ففرسها في بلاطات الشارع ، وكانت عبارة عن مذراة ذات سنين تتدلى منها جيفة حيوان ، ثم التفت ملك تاونس إلى كتيته وأجال بصره فيها وصاح :

– تقدموا يا أبنائي .. فصيلة المطارق !

فخرج من بين الصفوف ثلاثون رجلاً مفتولي العضلات ، ومعهم المطارق والكماشات ، وعلى أكتافهم قضبان الحديد ، وجعلوا يعالجون باب الكنيسة الرئيسي بالكماشات والرافعات ، ولكن الباب صمد أمامهم . صاح كلوبان :

– تشجعوا يا رفاق ! وقطع كلامه ضجة هائلة ، فقد سقط عمود ضخمة من أعلى ، فأصاب عشرة من المجرمين على درجة الكنيسة ، ثم قفز على بلاط الطريق كأنه صوت

مدفع وهرس من جمهرة الآخرين أيادي وأذرعاً وتعالى صرخاتهم .

وما إن زالت عن الملك تاونس الدهشة حتى صرخ بأتباعه :

– الخبثاء يدافعون .. إلى الأكياس .. إلى الأكياس .
وأخرج الحرافيش من أكياسهم الحجارة وبدؤوا يقذفون بمقاليهم واجهة الكنيسة .

ونفض على هذه الأصوات سكان البيوت المجاورة ،
وفتحت النوافذ وأشعلت الشموع ، فصاح كلوبان :
– اقدفوا النوافذ !

لم يجرؤ الحرافيش على مهاجمة الباب الرئيسي وكانوا يراقبونه من بعيد ، ولم يظهر أحد من الكنيسة ، وتجمد المهاجمون لأمر لا يعلمونه ، وحثهم كلوبان :

– المطارق .. المطارق .. اخلعوا الباب !

فلم يستجب له أحد ، فقال كلوبان :

– أيها الرجال هل تخافون من عارضة خشبية ؟

فقال أحد الحدادين :

– لسنا خائفين من العارضة .. ولكن الباب مدعم

بالقضبان الحديدية ولا تؤثر فيه الكماشات .

فسأله كلوبان :

– وكيف نخلعه إذن ؟

– يلزمنا عمود برأس كبش !

فأسرع ملك تاونس بشجاعة إلى الدعامة التي سقطت

عليهم ووضع رجله فوقها وقال :

– هاهو رأس الكبش قد أرسله الخبثاء إلينا .

ورفع يده بالتحية إلى ناحية الكنيسة :

– شكراً لكم يا خبثاء !

وكان لكلامه تأثير في أصحابه ، فحمل مائتا رجل

العمود كأنه ريشة خفيفة ، وجعلوا يصدمون به باب

الكنيسة ، فيصدر عنه صوت كالطبل يتردد صداه في أرجاء

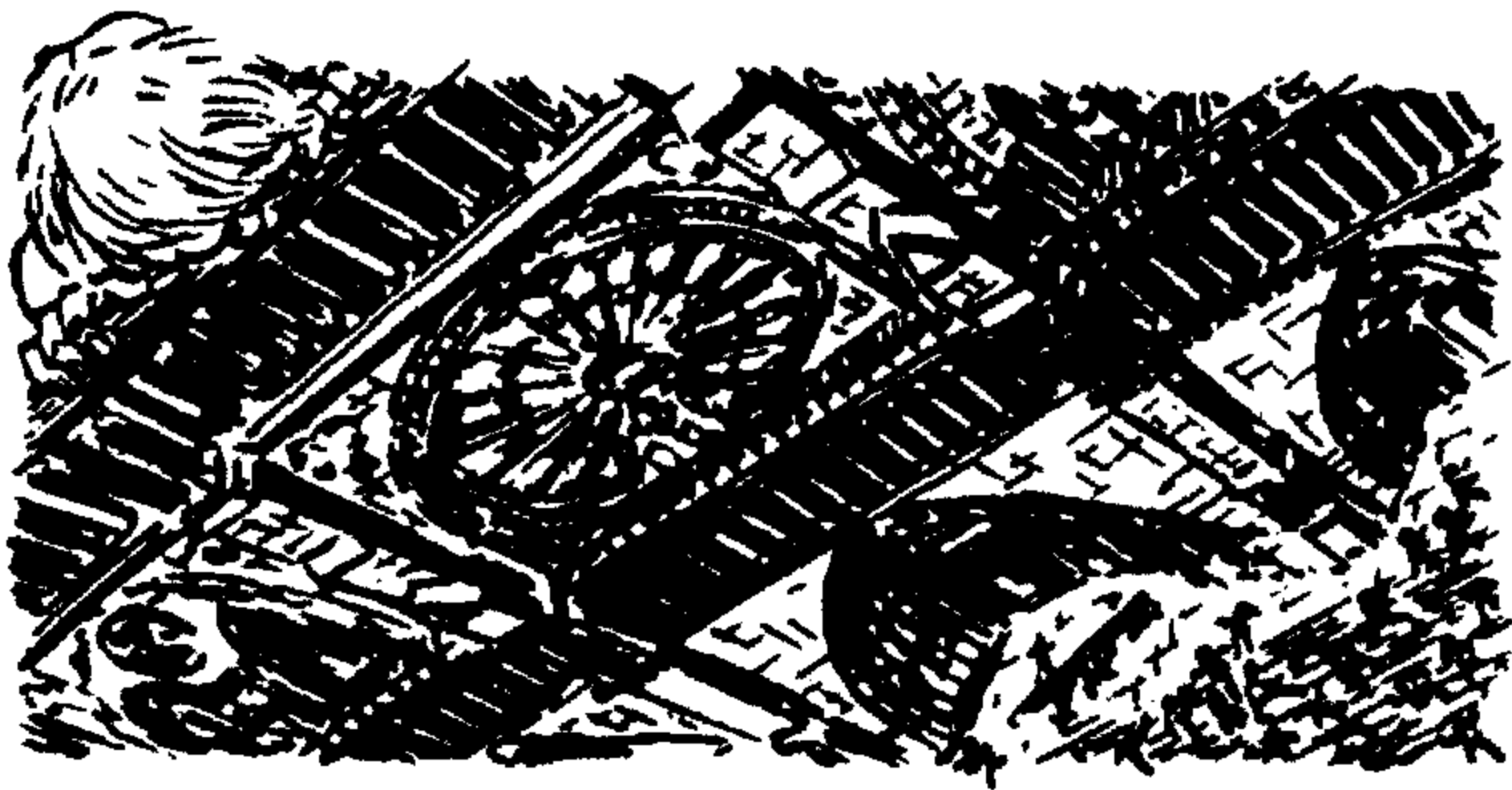
الكنيسة ، في تلك اللحظة أمطرهم حجارة ضخمة تساقطت على المهاجمين .

وصاح يوهان :

- هل سقطت حجارة الأبراج فوقنا ؟

ولا شك أن القارئ قد عرف أن كازيمودو وراء هذه المقاومة كلها ، وقد خدمته المصادفة ، إذ أن البرج الأوسط كان قيد الإصلاح وانتشرت حوله الحجارة الضخمة والدعامات الخشبية وقطع الرصاص .

ووجد كازيمودو فيما حوله ترسانة كاملة يحاربهم بها ، فحمل الدعامات الهائلة ورمها من أعلى البرج كما رأينا .



ورأى كازيمودو المهاجمين يتفرقون كما لو نفخت في حفنة رماد ، واستغل تراجعهم فنقل إلى حافة الحائط الأعلى الحجارة والرمل وحتى أدوات البناء بانتظار المعركة القادمة ، وحين رآهم يهاجمون الباب برأس الكبش رمى عليهم ما جمعه على الحافة فظنوا أن الكنيسة تنهار فوق رؤوسهم .

لاحظ كازيمودو أن سلاحه هذا لا يكفي لصد المهاجمين فتلفت حوله يتفقد ما يملكه من ذخيرة ، فوجد كتلاً من الرصاص الذي تركه العمال لإصلاح أسطح الكنيسة ، فأشعل ناراً كبيرة أمام المزاراب وذوب فيها كتل الرصاص ، ثم دفعها بعمود داخله فتساقطت مطراً ذائباً من اللهب فوق جموع المهاجمين ، فأحرقت عدداً منهم ، وتركت ثقوباً سوداء على بلاط الشارع كأنها مطر أسود فوق أرض غطاها الثلج ، وارتفعت أصوات الاستغاثة والذعر من كل مكان ، ورمى المهاجمون العمود الذي يحملونه فوق الجثث المتراكمة ،

وهرب الشجعان والجناء معاً وأصبحت الساحة خالية
منهم .

وعضّ كلوبان على كفيه كالمسحور :

– يستحيل علينا الدخول .

وهمهم الفجري ماتياس هنغاري :

– إنها كنيسة عتيقة مسحورة .

وصرخ ملك مصر :

– ألا ترون هذا الشيطان الذي يرقص أمام النار ؟

قال كلوبان :

– ألا توجد وسيلة لكسر هذا الباب ، يجب أن نجد

نقطة ضعف في هذه الكنيسة المسحورة ، ثقباً في الجدار أو

حجراً متزعزعاً أو شيئاً ما .

وسأل كلوبان :

– أين التلميذ الصغير يوهان الذي كان شديد

الحماسة ؟

فأجابه أحدهم :

- لقد مات لا ريب ، فنحن لا نسمع ضحكاته .

- والأستاذ بير غريغوار ؟

فقال أندراي الأحمر :

- لقد اختفى حين وصلنا إلى جسر الشانجور .

فخبط كلوبان الأرض بقدمه :

- هو الذي حرضنا على الهجوم ثم تخلى عنا .. الجبان

الشوثر .

وناداه أندراي الأحمر :

- سيد كلوبان .. هاهو التلميذ يوهان .

وكان يوهان يجري وهو يسحب وراءه سلماً طويلاً ،

وحين اقترب من كلوبان هتف : النصر لنا .

فسأله كلوبان : ماذا نفعل بالسلم ؟

- سأقول لك يا ملك تاونس ، أترى هذا الصف من

التمائيل ذات الملامح البلهاء تحت البوابات الصغيرة ؟ إن في

آخر الممر باباً لا يغلق أبداً ، وحين أصدع إليه بالسلم أدخل الكنيسة .

– إذن دعني أصدع أولاً .

– لا يا رفيق ، السلم سلمي .

فقال كلوبان :

– ليخنقك الشيطان ، لا أريد أن أكون تابِعاً لأحد .

– إذن ابحث عن سلم آخر .

وجعل يوهان يجري إلى الساحة ويمسح السلم وراءه

منادياً : إلي يا أولاد .

ورفع السلم بلمح البصر وأسند إلى الجدار فوق إحدى

البوابات الجانبية ، وصعد يوهان متأنياً يمسك السلم بيد

ومقلّعه بيد أخرى ، وتبعه المجرمون ، كل واحد منهم على

درجة من درجات السلم ، فلو نظرت إليهم من بعيد

حسبتهم شعباناً يتسلق الكنيسة .

وصل يوهان إلى السطح وخطا إليه وارتفعت تصفيقات
الخرافيش ، وحين ظن نفسه سيد هذه القلعة أطلق صرخة
انتصار ، ولكنه توقف فجأة وقد سيطر عليه الخوف إذ رأى
خلف تمثال أحد الملوك كازيمودو مختبئاً وعينه تقدح بالشرر .
ما كادت تطأ قدم يوهان السطح حتى هجم كازيمودو
على السلم ، فأمسك به من طرفيه ورفع به إلى أعلى ثم رماه
بعيداً في الساحة ، كأنما تلبسته قوة خارقة لقوى الإنسان ،
وتحولت صرخات الاستحسان إلى نداءات الاستغاثة ، وقد
سقط السلم وتحطم بمن عليه .

ووقف كازيمودو يتفرج على هذا المشهد بهدوء .

أما يوهان فرولو فقد وجد نفسه في موقف حرج ووقف
وحيداً في الردهة يفصله عن أصحابه حائط علوه عشرون
قدماً ، وحينما كان كازيمودو منشغلاً برمي السلم ، جرى
يوهان إلى الباب فوجده مقفلاً ، لقد أغلقه كازيمودو وراءه ،

فاختبأ وراء أحد التماثيل لا يجرؤ على التنفس ، وهو يرقب
الأحذب المتوحش بنظرات مذعورة .

لم يهتم الأحذب به بادئ الأمر ، ثم نهض فجأة وتقدم
إليه ، فتناول يوهان مقلاعه وهتف به :

- سوف أبدل اسمك .. لن ينادوك الأعور بل الأعمى .
ورمى حجراً فأصاب كتف كازيمودو فجرحه جرحاً
خفيفاً ، فجذب كازيمودو المقلاع من يده وكسره على
ركبتيه ، ثم قفز كالجرادة وسقط على يوهان وألصقه
بالحائط ، ثم أمسك بيد واحدة يدي يوهان معاً ، وبدأ
ينسزع عنه سلاحه ، السيف ، الخناجر ، الخوذة ، والترس ،
والدرع . وكان يرميها تحت قدميه واحداً بعد الآخر ، ولكن
يوهان لم يفرع منه وكأنما استسلم لمصيره فبدأ يضحك منه
ويسخر من عاهته ، فضرب كازيمودو به الحائط فقتله .

حينئذ ارتفعت الأصوات من الأسفل تنادي بالويل
وتدعو إلى الانتقام ، واختلطت أصوات هؤلاء الحرافيش ،

وكلُّ يتكلم بلغة بلده ولهجة قومه ، وكأن مصرع يوهان قد
 بث فيهم روح النضال والغضب لعجزهم عن اقتحام
 الكنيسة بحميها هذا الأحد .

وتنادوا فجاء بالسلام وأسندت إلى الجدران من كل
 النواحي ، وتضاعف عدد المشاعل يحملها رجال مصممون
 على الموت ، وكانت الساحة قد أضيئت بآلاف المشاعل
 وزالت حجب الظلام ، وانعكس النور على صفحة السماء
 وظهر البرجان الكبيران لكاتدرائية نوتردام كأنهما جبلا
 يبرزان وسط الظلام ، وبدت المدينة كأنها استيقظت من
 غفوتها ، وسعت إلى الكنيسة بأصوات التهديد والوعيد
 والسباب . ورأى كازيمودو هذا المد من الأعداء فارتجف
 خوفاً على العجربة ، وشاهد الوجوه الغاضبة تقترب من
 مرضعه شيئاً فشيئاً ، فطلب من الله معجزة وهو يقلب كفيه
 يائساً .

الفصل الرابع والعشرون

كلمة السر

هبط غرينغوار شارع سانت أنطوان بسرعة حصان هائج ، ووصل إلى باب بوديه ومشى مباشرة إلى الصليب الحجري القائم وسط الساحة لمقابلة الرجل الجالس على الدرج مرتدياً ملابس سوداء .

قال غرينغوار :

- أهو أنت يا أستاذ ؟

- لقد أحرقت أعصابي يا غرينغوار ..

وأعلن المنادي في ساحة سان جيفيه الواحدة والنصف صباحاً .

- ليس الذنب ذنبي وإنما هو ذنب الحراس ، لقد تمردت

بأعجوبة وقد كدت أشنق ، إنه قدرتي .

- هيا لتسرع ، هل تعرف كلمة السر ؟

- نعم إنها (شعلة العبث) .
- ولولاها لا نستطيع الدخول إلى الكنيسة ، لأن القتلة سدوا كل الطرقات ، ولكنهم يلاقون المقاومة لحسن الحظ ،
- لعلنا نصل قبل فوات الأوان .
- نعم يا أستاذي ، ولكن كيف سندخل إلى نوتردام ؟
- لدي مفاتيح الأبراج .
- وكيف سنخرج منها ؟
- خلف السياج باب صغير يؤدي إلى الباحة ومنها إلى النهر ، لقد أخذت المفتاح هذا الصباح ، وربطت قارباً إلى الرصيف .

وهبط الاثنان إلى المدينة بخطوات سريعة .



الفصل الخامس والعشرون

طار العصفور

يذكر القارئ الموقف الصعب الذي تركنا فيه كازيمودو ، فقد اجتاحت الجموعُ الأحذب الشهم من كل جانب ، ولم يفقد شجاعته ولكنه فقد أمله في إنقاذ الإسميرالدة ، لم يكن يفكر في نفسه بل بها ، وكان يجري في الردهات ، وكادت كنيسة نوتردام تسقط بين أيدي اللصوص ، وفجأة ارتفعت أصوات سنايك الخيل تصطك على حجارة الساحة ، وملأت الطرقات عساكر الملك المدججة بالسلاح وسُمِعَ هتافهم : اقتلوا اللصوص .

ودافع اللصوص عن أنفسهم وقد فقدوا الأمل في النجاة ، واختلط الرجال بالفرسان ، وسمع الجيران أصوات العساكر ففتحوا النوافذ ، وبدأت الكُرات تنهمر على

الحرافيش من كل جانب فانهزموا مخلفين وراءهم ركاماً من الموتى .

حينما رأى كازيمودو هزيمة المهاجمين ، ولم يكن قد توقف عن القتال ركع على ركبتيه وهو يشكر الله على النصر .
وجرى في نشوة انتصاره إلى الحجرة التي حرم على نفسه دخولها ، وليس في ذهنه سوى فكرة زفّ بشرى النصر لتلك المرأة التي ناضل من أجلها ، وحين دخل الغرفة وجدها خالية .



أثناء مهاجمة اللصوص الكنيسة كانت الإسميرالدة نائمة ،
وسرعان ما أيقظتها الأصوات المتصاعدة من الساحة ، وثناء
عنزها القلقة ، وسمعت أصواتاً تمشي قريبة منها ، ودخل
إلى حجرها رجل يحمل فانوساً فأطلقت صرخة فزع قصيرة ،
فقال لها صوت تعرفه :

– لا تخافي إني بدير غرينغوار .

فاطمأنت لرؤية الشاعر ، وكان معه شخص طويل القامة
مرتدياً السواد من قمة رأسه إلى قدميه لا ينطق بكلمة .
وسألت العجربة غرينغوار بصوت هامس :

– من معك ؟

– اطمئني ، إنه أحد أصدقائي .

ثم وضع الفيلسوف الفانوس على الأرض واحتضن
العنزة جالي بين ذراعيه وقال الإسميرالدة :

– إن حياتك أنت وجالي في خطر ، فقد تقرر

استعادتكما وإعدامكما ، وقد جئنا لإنقاذك فاتبعينا .

فسأله مرعوبة :

- هل تقول الحق ؟

- نعم .. إنه الحق .. أسرع !

أمسك غرينغوار بيدها وحمل صاحبه الفانوسَ وسبقهما .

وسيطر الرعب على الفتاة ولكنها مشت معهما .

وركضت العنزة وراءهم فرحة بقاء غرينغوار ، فكان

يتعثر في مشيته وهي تدس قرنيها بين قدميه .

نزلوا درجات الأبراج مسرعين وعبروا الكنيسة الغارقة

في الظلمة والسكون ، وطرقات المهاجمين تتردد بين أرجائها

حيناً بعد حين فتضاعف من سكونها ، وخرجوا إلى الساحة

من الباب الأحمر .

وتوجهوا إلى قطعة من الأرض حول سور المدينة فكانت

تصلهم الأصوات مخنوقة وأقل ارتفاعاً ، وسبقهم الرجل

بالفانوس إلى رصيف مهجور وقد اختبأ فيه قارب صغير .

كان أول شيء فعله غرينغوار حين صعدوا إلى القارب أن وضع العنزة في حجره ، وجلس في مؤخرة القارب ، والتصقت به الفتاة كأنها تحتمي به من جزع خفي أصابها لرؤية صاحبه ذي الملابس السوداء .

وسار القارب هادئاً نحو الضفة اليمنى من نهر السين ، والفتاة ترقب الرجل الغريب خائفة لسبب لا تعلمه ، وقد انعكس ظله على المركب كأنه شبح مهيب ، ولم يكن قد تكلم حتى الآن بل يضرب بالمجذافين على سطح الماء .

– قال غرينغوار فجأة :

– حين وصلنا إلى الساحة عبر الطرقات فهل لاحظت يا صاحب النيافة ذلك الفتى الذي أمسك به الأحذب وضرب به الحائط ؟ إن نظري ضعيف فلم أتعرف عليه ، فهل تعرف من يكون ؟

لم يجبه الرجل ولكنه توقف عن التجذيف فجأة وكأنما شُلَّتْ يداه وسقط رأسه على صدره وسمعته يتحسر أسفاً .

وتحرك القارب باتجاه التيار بضع لحظات ، ثم استقام الرجل وأمسك بالمجذافين ، وجعل يوجه القارب ضد التيار ، واجتاز نقطة التقاء الجزيرة بنوتردام واتجه إلى بور أوفوان . وقال غرينغوار :

- إن صراخهم يرتفع الآن .

وأصاخوا بسمعهم ، فجاءهم هتافات الانتصار ، ورأوا لمعان خوذ الجنود على الأبراج وأسطحة الكنيسة تنعكس عليها أضواء المشاعل ، وسمعوا أصواتهم تنادي :
" الفجرية .. الساحرة .. الموت للفجرية ! " .

وضعت البائسة وجهها بين كفيها وضاعف الرجل من تجذيفه نحو الضفة ، حتى حاذاها القارب .

توجه الرجل نحو الفجرية يساعدها على النزول ، ولكنها تعلقت بكم غرينغوار الذي دفعها عنه وحمل العنزة واختفى بين البيوت ، ووجدت نفسها وحيدة على الرصيف مع الرجل المجهول .

فارتجفت رعباً ، وحاولت أن تتكلم ، تصرخ ، تنادي
 غرينغوار ، فاحتبس لسانها في فمها ولم يسمع صوتها ، وفجأة
 أحست بيد الرجل تمسك بيدها ، وكانت يداً باردة قوية ،
 واصطكت أسنانها وأصبح لونها شاحباً شحوب ضوء القمر
 الذي ينير المكان . لم يقل الرجل شيئاً ، وصعد بخطوات
 سريعة نحو ساحة كريف وهو ممسك بيدها ، ولم تجذ بُدأً من
 الهرولة لمتابعته .

وكانت تستعيد قوتها من حين إلى آخر ، وتقول بصوت
 يقطعه صوت أقدامهما على الطريق :

— من أنت ؟ من أنت ؟

ولا يجيبها .

وسارا على طول الرصيف حتى وصلا ساحة فسيحة
 يضيئها نور القمر ، إنها ساحة كريف ، وفي وسطها صليب
 أسود مرتفع ، كان مكان الإعدام فعرفته ، وعلمت أين

تكون ، وكشف الرجل القبعة عن رأسه . فتمت
مذعورة : أعرف أنه هو .

إنه القس ، الذي صار كالطيف حين انعكس عليه ضوء
القمر وأصبح شاحب اللون . قال لها :
- اسمعي .. أريد أن أنقذك .

وارتجفت لهذا الصوت الذي لم تسمعه منذ زمن طويل .
فهل تصدقه ؟ إنه هو الذي دبّر هربها ولكن .. ألم يفعل
هذا لخداعها ؟ وكان غرينغوار يعتبره صديقه .. أفلا يكون
غرينغوار مخدوعاً به .. وأين هو الآن ؟

- اتركني .. إني أكرهك .. أنت مجرم !
وسقطت تحت نصب الصليب كأنها تستجير به ، وتأثر
القس لقولها " مجرم " فهل يستأهل هذه الصفة ؟
وقال يحدث نفسه :

- قابيل ، ماذا فعلت بأخيك ؟

لولا ألاعيبه الشيطانية لعاش أخوه ذلك الفتى الأشقر ولما
تحطم رأسه الجميل على جدار بيت الله .

وصعدت الدموع غزيرة إلى عينيه وسالت على خديه .
إن أخاه الصغير يوهان مات بسببه .

- كم أحببته ! وكم أعزّزته ! ولكني قتلته ، لقد مات
بسببي .. مات بسبب هذه المرأة .

وحاول إقناعها مرة ثانية بصدق نواياه فقال :

- أستطيع إنقاذك .. وحدي .. تعالي !

فأجابته بإباء :

- لا .

فقال :

- موتني إذن تكفيراً عن خطاياك !

أشرق الشمس ، ولم يكن وراء النوافذ أحد ، وكنت

ترى في البعيد من أعلى أبراج نوتردام التي تطل على ساحة

كريف رجلين اتشحا بالسواد تحت نور الشمس .

وقف الجلاد أمام الفتاة وأحاط عنقها بحبل ، فأحست
البائسة بخشونة حبل القنب حول عنقها .
فاهتزت وصرخت بأعلى صوتها :
- لا .. لا .. لا أريد أن أموت .

الفصل السادس والعشرون

من أعلى الأبراج

حين رأى كازيمودو أن الحُجرة خالية من الفجرية وأنها قد اختطفت أثناء دفاعه عنها ، أمسك شعره بيديه وصرخ دهشة وألماً ، ثم بدأ يجري في أنحاء الكنيسة يبحث عن الفجرية ، ويصرخ صرخات مرعبة في أركانها ، وينثر شعره الأحمر على البلاط . في تلك اللحظة دخل العساكر منتصرين باحثين عن الفجرية ، وساعدهم الأحذب في بحثهم ظاناً أن الحرافيش هم أعداؤها .

وتابع كازيمودو وحده بحثه عنها ، وكان يمر بالمكان نفسه عدة مرات مطأطئ الرأس ساكناً لا يكاد يتنفس ، وحين مر بالغرفة لم يجرؤ على دخولها ، ثم استجمع شجاعته ودخلها فلم يجد أحداً ، فأطفأ شعلته تحت قدميه ، ودون أن يتكلم أو يتحسر ضرب الجدار برأسه وسقط مغشياً عليه .

وتذكر بين الحلم واليقظة أن رئيس الأساقفة كلود
 فرولو هو الذي يحمل مفتاح الدرج المؤدي إلى الغرفة ،
 وتذكر آلاف التفاصيل التي تؤكد له أنه هو الذي اختطفها
 لكي يسلمها إلى أعدائها ، وراه من بعيد يتمشى بخطا بطيئة
 حول البرج الشمالي ، ولكن وجهه ينظر إلى الضفة اليمنى من
 نهر السين ، فنهض كازيمودو وتبعه .

كان يمشي وراءه بخطى الذئب ليرى أي شيء جذب
 انتباه رئيس الأساقفة ، وكان غارقاً في تأملاته حتى إنه لم ينتبه
 إلى الأحذب وراءه .

وأما النار التي أشعلها كازيمودو بين الأبراج فقد انطفأت
 ونظفت الساحة من الجثث المتراكمة بأن ألقيت في السين .

في الأعلى .. هناك فوق الأبراج ارتفعت زقزقة
 العصافير ، ولكن القس لم يلتفت إليها ، فهو من أولئك
 الناس الذين لا يصرون نور الصباح ولا العصافير والأزهار ،

ومن سعة هذا الأفق المحيط به لم يكن يتأمل سوى نقطة واحدة .

وتحرق كازيمودو شوقاً لسؤاله عما فعل بالفجرية ، ولكن يبدو على القس في تلك اللحظة أنه بعيد عن الدنيا كلها .

كان صمته مهيباً لم يجرؤ كازيمودو على توحشه أن يزعجه ، ولم يجد جواباً لما يجيش في نفسه سوى متابعة الاتجاه الذي يرمي إليه بصره ، وتوقفت نظرات الأحذب على ساحة كريف ، ورأى ما ينظر إليه القس ، رأى السلم الذي أسند إلى منصة الإعدام الدائمة .

وكان في الساحة بعض الناس وكثير من الجنود ورجل يجبر على بلاط الطريق شيئاً أبيض قد تعلق به شيء أسود ، ورآه كازيمودو بوضوح ، إنه يرقى سلم منصة الإعدام ، حاملاً امرأة فوق كتفه ، فتاة مرتدية ثياباً بيضاء وفي عنقها حبل معقود ، وعرفها كازيمودو .. إنها هي . وارتقى الرجل

السلم لكي يُخَكِّم شدّة الحبل حول عنقها ، وجثا القس على ركبتيه ليرى بوضوح أكثر .

دار الحبل حول ذاته عدة مرات ورأى كازيمودو جسد الفجرية يرتجف ، ومد القس عنقه وعيناه قد جحظتا من محجريهما ، يرى الرجل والمرأة من بعيد . في تلك اللحظة المرعبة انطلق من حنجرة القس ضحك شيطاني ، ضحك لا يصدر عن إنسان ، والتمع وجه القس بضوء شاحب ، ولم يسمع كازيمودو ضحكه بل رآه .

تراجع الأحذب عدة خطوات ، ثم هجم على القس هائجاً وجعل يديه في ظهره ودفع كلود فرولي نحو الخواء الذي ينظر إليه ، وصرخ القس :

— اللعنة !

وهوى ، ولكن المزاراب الذي كان تحته أوقف سقطته فتمسك به بيديه فاقدًا الأمل ، وفتح فمه ليصرخ من جديد

فرأى فوقه وجه كازيمودو المرعب المتعطش للانتقام ،
فسكت .

كان الفراغ تحته ، وسقطة ارتفاعها مائتا قدم بانتظاره ،
وكان بوسع كازيمودو أن يمد يده إليه لينتشله منها ولكنه لم
ينظر إليه ، بل ينظر إلى الفجرية ، واتكأ الأحذب على
الإفريز الذي وقف بجانبه القس قبل قليل ، ولم يكن يهتم في
هذا العالم سوى ذلك الثوب الأبيض الذي يتأرجح معلقاً بحبل
المشنقة ، كان صامتاً ساكناً مصعوقاً وسيل من الدمع ينهمر
من عينه الوحيدة ، تلك العين التي لم تذرف الدمع قبل الآن
سوى مرة واحدة .



أثناء ذلك كان القس يلهث والعرق يتصبب من جبينه ،
والدم ينضح من أظافره على الحجر ، وركبتاه التصقتا
بالجدار .

كان شيئاً رهيباً سكوتُ هذين الرجلين ، على حين
تفيض روح القس على بعد خطوتين من كازيمودو ، وكان
كازيمودو يبكي وهو ينظر إلى ساحة كريف .

رأى القس أن المزاراب ينوء به فلم يتحرك ، واعتنق
المزاراب وقد حبس أنفاسه ، ولم يكن شيء يدل على حياته
سوى خفقان صدره ، وتأمل واحدةً تلو أخرى تلك
المنحوتات الحجرية ، تراقبه من فوق الأبراج ولكنها لا ترثي
له ، كل شيء مما حوله حجر ، أمام بصره تماثيل الوحوش من
حجر ، وتحت قدميه حجر ، والساحة مرصوفة بالحجر ،
وكازيمودو ساكناً يبكي كقطعة من حجر .

تجمع في الساحة بعض الفضوليين يتساءلون عمن يكون
 هذا المجنون الذي يلهو بهذه اللعبة الخطيرة ، وسمع القس
 حديثهم الذي يصل إليه واضحاً :
 - ستدق عنقه .

وكازيمودو يبكي .

وأدرك رئيس الأساقفة ، وقد أزيد فمه غضباً وفزعاً أن
 كل شيء انتهى ، واستجمع كل ما في ذاته من قوة واستقام
 على المزrab ودفع الحائط بركبتيه ، وأمسك بيده إفريزاً
 بارزاً واستطاع أن يرتفع قيد قدم واحدة ، ولكن انفار به
 المزrab وانشق صدر ثوبه الكهنوتي ، وأحس أن لا جدوى
 فأطلق يديه .

رآه كازيمودو يهوي .

هوى رئيس الأساقفة في الفراغ وسقط على رأسه
 وذراعا ممدودتان ، ودار حول نفسه عدة مرات واستقر
 على بلاط الشارع دون حراك .

رفع كازيمودو عينه عن الثوب الأبيض المتطاير في
 الهواء ، ونظر إلى رئيس الأساقفة الذي فقد شكله الإنساني
 ممدوداً على البلاط ، وقال منتحباً وصدره يعلو من الأنين :
 - آه .. فقدتُ كل من أحبت .



الفصل السابع والعشرون

نهاية

مساء ذلك اليوم ، حينما حضرت الهيئة الدينية لتشهد رفع جثة رئيس الأساقفة المهشمة من الساحة ، كان كازيمودو قد اختفى من كاتدرائية نوتردام .

ودار لفظ كثير حول هذه القضية ، وقالوا إن مصرع القس قد تصادف مع اختفاء كازيمودو الشيطان طبقاً لعقد بينهما ، إذ أن الشيطان كازيمودو قد حطم جسد القس ، واستل منه روحه كما يفعل القرد حين يكسر جوزة الهند ليأكل لبّها ، لذلك لم يدفن رئيس الأساقفة في مقابر المؤمنين . أما بدير غرينغوار فقد استطاع إنقاذ العنزة وأحرز نجاحاً باهراً في المسرح التراجيدي ، والظاهر أنه بعد أن ذاق طعم الفلسفة والهندسة المعمارية والعلوم السرية وكل هذه الأعمال الجنونية عاد إلى التراجيديا التي هي أكثرها جنوناً .

ويمكننا القول إن نهايته كانت تراجيدية .

أما فوبوس دي شاتوبرس فقد تزوج ابنة عمه الحسناء
فلورديلي وعاشا حياة هائلة ، ولم يزعم أحد أن مزاج
الضابط قد تبدل ، إذ يراه الناس دائم الغم والتفكير .

الفهرس

- 5 1 المسرحية .
- 10 2 متاعب شاعر .
- 15 3 كازيمودو .
- 20 4 العنزة ذات القدمين الذهبيتين .
- 30 5 مخاطر التجوال ليلاً .
- 36 6 الجرة المكسورة .
- 44 7 المطعم والمأوى .
- 51 8 نوتردام .
- 58 9 كازيمودو أمام القضاة .
- 64 10 ساحة التعذيب .
- 71 11 زيارة الفجرية .
- 86 12 قلب رقيق .
- 91 13 حب المتوحش .

- 14 حب سيد مهذب . 93
- 15 الحب البريء . 96
- 16 إسميرالدة أمام القضاء . 103
- 17 الاستجواب . 114
- 18 قلب متقلب . 123
- 19 حق اللجوء . 135
- 20 دودة الأرض ونجمة السماء . 140
- 21 غرينغوار وأفكاره العظيمة . 144
- 22 ليلة تحت السلاح . 149
- 23 الهجوم . 153
- 24 كلمة السر . 167
- 25 طار العصفور . 169
- 26 من أعلى الأبراج . 179
- 27 نهاية . 187

أحمد بن محمد بن أحمد

تجري أحداث هذه القصة في باريس أثناء
العصر الوسيط ، وتتهم الغجرية إسميرالدة
بالسحر والشعوذة ، وتقدم إلى منصة
الإعدام ، ولكن كازيمودو قارع النواقيس
الأحذب في كنيسة نوتردام يحاول إنقاذها .
فهل ينجح في ذلك ؟.

صادر عن هذه المجموعة :

- | | | |
|--------------------|---------------------------------|-----------|
| 1 - الذئب الأبيض | 9 - عشرون ألف فرسخ تحت البحار | 17 - حمار |
| 2 - توم سوير | 10 - ريمي الصغير | 18 - الزم |
| 3 - الهندي الشجاع | 11 - نساء صغيرات | 19 - كت |
| 4 - مذكرات حمار | 12 - جزيرة الكنز | 20 - أح |
| 5 - نداء الغابة | 13 - حول العالم في ثمانين يوماً | 21 - الل |
| 6 - روبنسون كروزو | 14 - كوخ العم توم | 22 - الن |
| 7 - هابايدي | 15 - شرلوك هولمز | 23 - أح |
| 8 - حكايات أندرسون | 16 - مغامرات الكابتن فراكاس | 24 - ف |

Bibliotheca Alexandrina



0606414



دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE

سورية - حلب هـ ٢٢٢٦٧٠٨ - دمشق هـ ٢٢٢٠٢٨٣

تصميم الغلاف : هيثم فرحان